الفنون الجنوبية بين الهدف والاستهداف من النشأة إلى التدمير

المسرح في عدن نموذجًا

د. سالم الحنشي
أكاديمي ومحاضر في جامعة عدن
باحث لدى مؤسسة اليوم الثامن للإعلام والدراسات

ابريل 2024م

صادر عن
مؤسسة
alyoum8.net
اليوم الثامن
للإعلام والدراسات

الملخص

تهدف هذه الدراسة لمعرفة مسار الحركة الثقافية الفنية في الجنوب، من النشأة حتى التدمير، ومحاولة الوقوف على الفن المسرحي الذي كان رافدا مهما في تطور الوعي الثقافي وتنمية الشخصية الوطنية وتقدم وعيها بأهمية الحياة والنظام والعدل والأمن والاستقرار، وفي سبيل كشف أغوار ذلك الهدف التي تضمنته الدراسة، اعتمدت المنهج التاريخي الاستقصائي يرافقه المنهج الوصفي لمسار المسرح بجميع أنواعه في مدينة عدن، وقد تتوقف أمام تاريخ النشاط المسرحي، وأهميته، وأنواعه، منذ الإرهاصات الأولى مرورًا بالتبلور والنضج، والكبوات، حتى تم استهدافه بشكل ممنهج ومدروس من قبل نظام الاحتلال بعد عام 1994م، وما يشهده حاليًا من محاولات انعاشية، وما يجب أن يتم أمام هذا الفن لإعادة نشاطه ودوره الريادي التوعوي للشعب.

المقدمة

يعدُّ الفن تعبيرًا عن رقي الشعوب ومدى حضارتها وتطورها وما بلغته من ثقافة عالية؛ ولهذا قيل: أعطني مسرحًا أعطيك شعبًا واعيًا. ما يعني أن الفن رافد مهم في تطور الشعوب وتقدمها، ووعيها بأهمية الحياة والنظام والعدل والأمن والاستقرار، وهي المقومات التي ينتعش الفن بكافة أشكاله وأنواعه في ظلها، ويعمل على ترسيخها في المجتمعات، إذ رسالة الفن ليست المتعة فحسب بل الإفادة أيضًا.

وقد كان الشعب الجنوبي سباقًا في هذا الاتجاه، فشهد تطورًا ملموسًا في عدة أنواع فنية تشهد الأطلال والذكريات التي تحتاج إلى التدوين والكتابة عنها؛ على ذلك، فكان شعب الجنوب سبَّاقًا إلى وجود مسارح الفن الشعبية والرسمية، ودور السينما التي وصل الحال ببعضها إلى تبادل نوبات القائمين عليها، وحضور الجمهور في الأوقات المختلفة في مسار النهار والليل في اليوم الواحد، وتشكيل الفرق الغنائية، والفرق التمثيلية والمسرحية، والأهم بذلك كلّه اتخاذ ذلك نهج حياة من خلال إدخال مادة الموسيقى والفنية ضمن مقررات المواد المدرسية، وإيجاد مدرسين مختصين فيها، ووضعها ضمن جدول الحصص اليومية في الدوام المدرسي.

لقد عرف الجنوب العربي المسرح بوصفه فنًا يتميز بخصائص وعناصر محددة ويحتاج إلى مقومات، منذ زمن مبكر مقارنة مع غيره من بلدان الجزيرة العربية، ويعود تاريخ تمثيل أول مسرحية في مدينة عدن أولى مدن الجنوب التي عرفت هذا الفن، إلى ما يزيد عن قرن وعشرين عامًا، وتحديدًا إلى عام 1904م، ويرجع ذلك إلى النافذة البحرية التي تطل عليها هذه المدينة، فجعلتها في عملية مثاقفة، اتصال وتواصل بشكل دائم مع كل من يقتحم البحر، راكبًا للتجارة أو السياحة أو الاستكشاف أو الغزو... ويريد الانتقال من غرب الكرة الأرضية إلى شرقها أو العكس، إذ جعل مضيق باب المندب هذه المدينة ذات موقع استرتيجي بالغ الأهمية، يحط فيها الرحال كل مار بهذه البحار، بعد قطع المسافات الطويلة بين الأمواج المتلاطمة، للراحة والتزود بالوقود والمؤن التي يحتاج إليها في مواصلة سفره البحري، وبقدر ما تمنح الواصل إليها من البحر مما تجود به ماديًا ومعنويًا تأخذ منه وتستفيد مما يتزود به.

وأكثر من ذلك فسماحة هذا الشعب وطيبته ووجدانه الطافح جعله مسرحًا عامًا لممارسة كل أشكال الفنون وتقبلها، وحتى بعد الاستقلال من الاحتلال البريطاني استمر بهذا المسار والتوجه العام مع كل الفنون، وإن وجد تدخل من قبل النظام القائم سوى في عهد الاحتلال أو بعده، فهو في توجيه مضامين النصوص المرافقة لأشكال الفنون التي قد تتعارض مع توجهات وتطلعات الإيديولوجيا المنفتحة أصلًا على انتشار الفنون وتطور مساراتها العامة فضلًا عن مساحات ممارساتها، لكن هذا التاريخ المبكر لمعرفة الفنون عامةً والمسرح خاصة لم تدعه التقلبات والتحولات التي شهدتها هذه الأرض.

ولا نبالغ إذا قلنا إن الجنوب كان مسرحًا فنيًّا في الهواء الطلق متاحًا أمام الجميع بمشاهدته وأخذ الدور فيه، فيستطيع أي شخص أن يكون بطل المسرح الوطني الشعبي حيثما حلَّ أو رحل في جغرافية الجنوب العربي، إذ كانت المناسبات في القرى والأرياف تتحول إلى أهازيج وزوامل وشروح ورقصات مختلفة عامة وخاصة بحسب النوع والفئات العمرية، وكذلك الحال في المدن بإقامة المخادر والحفلات الفنية في الشوارع وبجانب المنازل والممرات الداخلية في الأحياء.

إشكالية البحث

لم يعد لنا اليوم من المسرح ما كان ينبغي أن يكون عليه الحال من التطور والانتشار وما يحتاج إليه من بنية ماديةً ومعنويةً، فطمس كل شيء، وكأنه قد بلغ النهاية ليعود إلى البداية، وهو في حقيقة الأمر أوقف قسرًا، وهو ما زال في بدايات مدارج التطور والازدهار، وأعيد إلى نقطة البداية بسب وقفات تاريخية تكتب بأحرف أشد قتامة من ظلمات الليل الحالك في حياة هذا الشعب الذي جعله هذا الموقع الجغرافي المميز محل أطماع وتنافس من الأقارب والجيران قبل البعيدين عنه ومن هم وراء البحار والمحيطات، وما زال يعاني حتى اليوم، وهذه الوقفات ليس أولها وحدة عام 1990م، ولا آخرها حرب غزو الجنوب الأولى عام 1994م من قبل الشريك في وحدة الغدر والخيانة والسعي الدؤوب إلى تغيير كل جميل في هذه الأرض، وهدم ما عمره الإنسان الجنوبي من بنى تحتية وفوقيه، وبشكل ممنهج ومدروس ورعاية رسمية من أعلى هرم سلطة الاحتلال، وعلى مدى ربع قرن من الزمن؛ ليجدد حرب ترسانته العسكرية في 2015م، وما زالت أفواه أسلحته بجميع أحجامها مشرعة على الجنوب الأرض والإنسان حتى اللحظة، فضلًا عمّا جلبته تلك الممارسات الهوجاء بحق الجار بالجنب من طامعين كثر اليوم قريبين وغرباء، كل واحد منهم يشحذ شفرته للاجتزاء ما يمكنه أن يجتزئه من جسد هذا الوطن ماديًا ومعنويًا.

أسئلة البحث

تمثلت الإشكالية في موضوع دراستنا، الفنون الجنوبية بين الهدف والاستهداف من النشأة إلى التدمير، وكانت هذه الإشكالية الأساسية التي انبثقت منها هذه الدراسة؛ لتحاول الإجابة عمًا يتبادر منها من أسئلة، أهمها:

- متى عرف شعب الجنوب عامةً وعدن خاصة المسرح بوصفه فنًا؟
- كيف كانت معرفة هذه المدينة بهذا الفن؟
- هل تقبلت هذه المدينة هذا الفن؟
- هل عملت على انتشار وتطوير هذا الفن وتفرعه؟
- ما هي المحطات التي تعرض لها هذا الفن إلى الانتكاس الذي وصل إليه اليوم؟

أهمية البحث

إن الأهمية التي يحتلها فن المسرح في حياة الشعوب، ومساره في تاريخ شعب الجنوب، وحاله الذي وصل إليه اليوم من شبه عدم وجود.

منهجية البحث

وللإجابة عن إشكالية الدراسة وعمّا تفرع عنها من أسئلة أخرى، ستسير وفق المنهج التاريخي الاستقصائي يرافقه المنهج الوصفي لمسار المسرح بجميع أنواعه في مدينة عدن، وستتوقف أمام تاريخ النشاط المسرحي، وأهميته، وأنواعه، منذ الإرهاصات الأولى مرورًا بالتبلور والنضج، والكبوات التي تعرض لها هذه الفن من حين إلى آخر، حتى تم استهدافه بشكل ممنهج ومدروس من قبل نظام الاحتلال بعد عام 1994م، وما يشهده حاليًا من محاولات انعاشية، وما يجب أن يتم أمام هذا الفن لإعادة نشاطه ودوره الريادي التوعوي للشعب.

التمهيد

يعرف فنّ المسرح بأنّه أبو الفنون، وذلك لأنّه أوّل أنواع الفن، ولقدرته على توظيف كل الأشكال التعبيرية المعروفة، من رقص وموسيقى وشعر ورسم. وقد بدأ فن المسرح منذ أيّام الإغريق والرومان، وقد اشتهر فن المسرح لما كان له من أثر على النفوس، فهو في ذلك الوقت الوسيلة الوحيدة التي يعبر الإنسان فيها عمّا يجول في خاطره وداخله، فهو شكل من أشكال التعبير عن العواطف والمشاعر الإنسانية وعن آراء المجتمع وفلسفته، وأصبح له دور مؤثر وفاعل في مشاكل المجتمع وهمومه؛ لهذا استطاع المسرح بوصفه فنًّا وأدبًا أن يتشكّل وينمو ويضرب بجذوره منذ القديم في الأعماق الذهنية والنفسية والأرضية التاريخية والثقافية والاجتماعية في الجنوب، ويتجلى في تلك العروض الخاصة التي ترافق الاحتفالات الاجتماعية والجماعية كالزوج ومراسيم اللقاءات القبيلة، والمهرجانات، والمناسبات... إلخ.

والمسرح أداة حضارية في تاريخ شعوب العالم، وفي تشكيل وتطوير ذهنية المجتمعات ومساعدتها على إعادة صياغة حياتها بشكل يتناسب مع آمالها وتطلعاتها المستقبلية، وهو أداة تواصل مع التاريخ والعصر وحاجة ثقافية مطلوبة للمجتمع، وظاهرة يسأل عنها إذا ضعفت أو اختفت، ويدافع عنها ويقاوم من يحاول إعاقة خطاها ويعرقل امتدادها وانتشارها؛ ولهذا خصص له يوم(27 مارس) من كل عام، للاحتفال به على مستوى العالم.

ويُعدُّ المسرح أبو الفنون الجميلة وأحد أعمدة الحضارة الإنسانية المتعاقبة منذ فجر التاريخ، ويتمتع بالقدرة على الموالفة بين عناصر فنية متعددة حيث كانت المسارح هي الوسيلة الوحيدة للتعبير؛ لذلك فالمسرح هو بيت من بيوت الفن الذي يمكن من خلاله توصيل رسائل هادفة للمجتمع بشكل مباشر لاسيما المسرح التفاعلي.

فهو أبو الفنون كلها إن لم يكن هو كل الفنون المتعارف عليها؛ لأن المسرح يمتلك خصائص ومميزات عدة أهمها التفاعل الإنساني الذي يرتكز على القدرة العالية في الأداء الدرامي الراقي وحنكة واقتدار تلقي المشاهدين وإعجابهم وتأثرهم بما يقدم لهم على خشبة المسرح، وعملية الوقوف على خشبة المسرح ليست بالعملية السهلة، فهي عملية طويلة من المران والتدريب والشجاعة وحب فن التمثيل المسرحي، فضلًا عن امتلاك ناصية الثقافة والمعرفة، وهذه جميعها تمثل مواهب ذات قدرات لا يستهان بها.

والمسرح هو الوجه الأخصب من بين بقية وجوه الفنون الأخرى، بل يُعَد في الآن ذاته أنضج الفنون وأولّها ظهورًا منذ عهد الإغريق، وبالمسرح يقاس مدى رقي المجتمعات أو تعثرها، وأساس المسرح «الحوار» لا السرد أو الغنائية... وعند الحديث عن المسرح العربي يطل السؤال الأهم، هل ثمة حوار حقيقي في العالم العربي؟

يتبادر هذا السؤال؛ لأن العربي لا يتقن الحوار، وليس معهودًا عنه، وهو بطبعه متأهبٌ للنزال مستمتعٌ بالضجيج، وهذا انعكاس لما يتلاءم مع أجواء الحرب والصحراء، والمسرح الهادف لا ينمو في الصحراء، التي يظل الإنسان بثقافته وحضارته ملازمًا لها، ولا يريد أن يضفي تدخلاته العقلانية الموضوعية عليها.

والمسرح من شأنه الاعتناء بتفعيل الحوار بين الشخصيات فهي(تتحاور/ تتلقى) فيما بينها بقصد إيجاد الوسائط المتعددة للتواصل مع الآخر، بينما العقليَّة العربية تأبى الحوار والتلقي، وترى فيهما قيمتين سلبيتين لهما صلة بالأنثى التي يراها إناءً لتلقِّي ماء الذكر ومحاورة أعضائه الضامرة.

ولم نكن يومًا مضطرين لاختراع مواعيد للحوار؛ لأن البشر لا يكفون عن الكلام، عن تكليم بعضهم بعضًا، هم يتكلمون من الصباح إلى الليل في كل يومٍ من أيام الحياة، ولكنهم لا يتحاورون إلاَّ في الظاهر، أما في الحقيقية فكل منهم يكلِّم نفسه ويستمع لصوته، إذا استعمل اللغة فهو لا يستعملها ليتحاور مع غيره ولكن ليعبّر بها عن أفكاره ورغباته ونوازعه، وإن أقدمَ على فعلٍ فهو لا يُقْدم عليه من أجل غيره ولكن من أجل نفسه، ولو كرّسوا التحاور بينهم - وهذا ما يسعى المسرح إلى فرضه- وسَمِعَ بعضهم بعض؛ لتغير حالهم إلى وضع أفضل مما هم عليه.

وعناصر المسرح توجد في الأدب والفلكلور الفني كالأساطير والحكايات الشعبية، والنكات، والأمثال، والألغاز، والاحتفالات

الشعبية بالمناسبات المختلفة، والأهازيج، والزوامل، والموسيقى المتنوعة، وفنون المحاكاة، والحكواتي(الراوي)، والكوميديا الشعبية المرتجلة، ومسرح خيال الظل، والعرائس، وكل ما تحفل به البلدان من فنون شعبية، وهي لا تحتاج إلا إلى الاستفادة منها وبلورتها، والنهج على ما فيها من درامية وحوار لإنتاج نصوص مسرحية، وجعلها نهج حياة.

وتختلف العروض المسرحية من حيث النوع من المأساة إلى الكوميديا، ومن المسرح الموسيقي إلى المسرح التجريبي، ومن المسرحيات الطبيعية إلى المسرح العبثي.

ولا تقتصر غاية المسرح على الإمتاع، بل تشمل أهدافًا فكريّة وتثقيفيّة وترفيهيّة للمشاهدين، ولذلك يوصَف بأنه مدرسة الشعوب، وجمهور المسرح يهتم عادةً بالقضايا التي يعايشها في حاضره متضمّنةً عرض قضاياه بشتّى أنواعها السياسية، الاقتصادية، والدينية... إلخ، ويحمل الفن المسرحي أفكاره بطريقة ترفيهية، وواضحة، وهذا ما يجعله دائم الإقبال من قِبل مُشاهديه على مرّ الأحقاب.

وهو إلى جانب موضوعه الرئيس يجب أن يتناول في عروضه موضوعات مختلفة حتى يخاطب ويحاكي كافة العقليات المتابعة له، ويجب أن يكون فيه تنوع في الشخصيات والوجوه الجديدة شريطة أن تكون جذابة وذا كفاءة في إيصال الفكرة والعنوان المراد تقديمه، حتى يحقق مقاصده إمتاعًا وإفادةً.

المطلب الأول

المسرح في عدن في عهد الاحتلال البريطاني

تفاوتت التقديرات حول دخول المسرح بوصفه فنًّا _ يشتمل على عناصر مميزة ويحتاج إلى مقومات خاصة _ إلى الجنوب لدى المهتمين بين عامي 1904 و1910م، وما بين العامين الأول والثاني شهدت عدن عددًا من العروض لفرق هندية قدمت إليها في حينها.

ويشير الكاتب والمخرج المسرحي أحمد عبدالله سعد إلى أن طلائع المسرح الأجنبي قد دخلت إلى مدينة عدن في العام 1849 -1909م، وتتمثل في فرق نظمها الهنود القاطنون في عدن وزوارها، ومن هذه الفرق «فرقة شاه» و«الفرقة الهندية الثانية» ما بين العام 1904 إلى العام 1908م.

والفرقة الهندية التي قدمت إلى عدن عام 1908م جاءت بجميع لوازم المسرح من ستائر ومناظير متعددة ومصابيح إضاءة، وقدمت مسرحيتين في حفل الافتتاح الأول باسم «خدا حق» ومعناها بالعربية «الله حق» والثانية باسم «شيري وفرحان» وهذه تكاد تكون صورة من القصة العربية الشهيرة «قيس وليلى»، وأقيمت على خشبة مسرح في بناية قهوجي المعروفة في عدن، وسميت باسم المسرح الملكي، وفي عام 1909م تحول المسرح الملكي إلى هندوكي آخر اسمه «جمنداس» ويعمل ساعاتي، وكوَّن فرقة مشتركة استمرت عامًا، وبسبب الظروف المالية توقفت عن المسرح في عام 1910م.

وقد شكّلت هذه العروض حافزًا لدى عدد من شبان عدن الذين تنادوا لتشكيل «فرقة التمثيل» سنة 1910، دشّنت أولى إرهاصات فن المسرح بتقديمها مسرحية «يوليوس قيصر» عن رائعة وليم شكسبير.

ويذكر المخرج المسرحي عمر بامطرف أن حمود بن حسن الهاشمي أيام نظارته لإدارة المعارف في العام 1910م قدَّم أول عمل مسرحي لفريق التمثيل في مدرسة الحكومة بعدن، فشكّل أول فريق للتمثيل من طلبة المدرسة العربية الحكومية، التي كان مديرها وقتذاك الأستاذ عبدالرحيم خان، وقدّم ذلك الفريق التمثيلي مسرحية(يوليوس قيصر) لشكسبير، على مسرح صغير أقيم في ميدان للتنس الأرضي التابع لإحدى الجاليات في عدن، واشترك في تلك المسرحية الأستاذ أحمد محمد آل يعقوب في دور(بروتس)، والاستاذ محمد عبدالحميد المكاوي بدور(يوليوس قيصر)، وكانت هذه أول مسرحية يمثلها ويشاهدها الناس في عدن مترجمة إلى العربية. وتُعدُّ هذه المسرحية أول عمل مسرحي مترجم يُقدَم بطاقم محلي.

ويؤكّد المؤرّخ المسرحي والمرجعية الأولى في تاريخ المسرح، الأستاذ عمر عوض بامطرف (1928م2009-م)، أنّ (المستر حمود) هو الذي أشرف أيضًا على إخراج المسرحية وتدريب الممثلين وتلقينهم، استنادًا إلى رواية بطلها الأستاذ أحمد محمد آل يعقوب.

***

ومما سبق نستطيع القول إن المسرح في الجنوب، لاسيما عدن بدأ فيها قبل أكثر من 120 عامًا، وإن أول عرض قُدّم للفرجة في مدينة عدن، مسرحية (يوليوس قيصر)، وهي من أشهر أعمال المؤلف المسرحي وليم شكسبير، بعد حوالي ست سنوات من ظهور المسرح في عدن، بواسطة فرقة هندية قدّمت أولَ عروض واسكتشات تمثيلية عام 1904م.

ولم يقتصر الأمر على ميلاد أول فريقِ تمثيلٍ يتصدّى في بدايته، لعمل ملحميّ كبير كهذا، بل تلك البداية سجلت، أيضًا، أسبقية في الترجمة الأولى لمسرحية (يوليوس قيصر) من الإنجليزية إلى العربية.

ويعود الفضل إلى المخرج والناقد المسرحي الراحل أحمد سعيد الريدي، الذي كشف في كتابه (قراءة نقدية معاصرة لتاريخ المسرح اليمني)، غير المطبوع، أنّ حمود بن حسن الهاشمي المعروف بـ"المستر حمود" (1867م1939-م)، هو أوّلُ عربيّ يقوم بترجمة مسرحية(يوليوس قيصر) من اللغة الإنجليزية إلى اللغة العربية في تاريخ الأدب العربي الحديث، وبالتالي يمكن القول إنّ بلادنا(الجنوب) هي أولُ بلدٍ عربيّ يقدّم تلك المسرحية مترجمة إلى اللغة العربية.

وبهذا تكون عدن قد شهدت أول عرض مسرحي في منطقة الجزيرة العربية سنة 1904م، ذلك العرض الذي قدّمته فرقة «جملت شاه» الهندية في موقع غير مخصص للأداء المسرحي في أحد أحياء المدينة. وكانت هذه الفرقة في طريقها آنذاك إلى

عدد من بلدان شرق إفريقيا لتقديم عروضها هناك، وقد توقفت في ميناء عدن للتزود بالوقود، وبسبب وقوع مشكلة في الميناء اضطرت للبقاء نحو أسبوعين، فقابل رئيس الفرقة بعض أبناء الجالية الهندية في عدن، وعرضوا عليه النزول فيها عند عودة الفرقة إلى الهند ليقدم لهم بعض فنونها، وأثناء عودة هذه الفرقة أوفت بوعدها، فنزلت عدن، وأقاموا للفرقة مسرحًا خاصًا في البناية التي اشتهرت فيما بعد باسم «سينما مستر حمود» في كريتر، وقدمت الفرقة مسرحية تاريخية باللغة الهندية نالت الإعجاب من الجمهور.

وفي الأعوام التالية تواتر وصول الفرق المسرحية الهندية إلى عدن، وكانت ترافقها أحيانًا فرق فنية تضم عددًا من المطربين والعازفين والراقصين من الجنسين، فضلًا عن فرق السيرك التي اشتهرت بها الهند آنذاك مصحوبةً بأنواع من الحيوانات والزواحف والطيور التي عرفها سكان عدن للمرة الأولى.

ويشير الباحث أحمد الريدي إلى جملة من العروض المسرحية التي قدمت حتى العام 1936م والتي وصلت أحيانًا إلى 6 عروض منها، والتي توالى بعدها العمل المسرحي وتطورت السينما، وأصبحت عدن حاضنة لكل ما هو جميل ومتميز في الفن والمسرح والغناء والتعبير المختلف.

لكن بدايات هذا النشاط المسرحي في عدن، التي تعدُّ الإرهاصات الأولى، أجهضت مع الحرب العالمية الأول فأصيب بالشلل من 1912 _ 1920م.

وبعد ذلك اعتمد النص منذ 1926م على الروايات والقصص الغرامية التاريخية تحت تأثير الجالية الهندية في عدن، ويمكن القول بأنه في عام 1927م بدأ عصر التمثيل العربي بعدن بعد ظهور مسرحية (شهداء الغرام) في عام 1926م التي دفعت الشباب إلى تكوين الفرق المسرحية، فقد وجدوا في التمثيل وسيلة من وسائل التثقيف والتسلية، فنشطت الحركة المسرحية في عدن من عام 1926م _ 1940م. ففي عام 1929م تم تشكيل فرقة مسرحية تابعة لنادي الإصلاح العربي، وتكونت فرق عديدة، لكن معظمها لم يتعد نشاطها مسرحية أو مسرحيتين في العام الواحد.

ومن المسرحيات التي ظهرت في تلك المدة، مسرحية(يوسف الصديق) للقاضي عبدالله عوض شرف، التي عرضت عام 1939م، وبعدها فرضت الرقابة _ على النص المسرحي، منذ هذا العام _ للمرة الأولى، واتخذت الرقابة الغلاف الديني لتحقيق الهدف السياسي منذ هذا العام الذي اسماه بامطرف(بالعهد الذهبي)، وقد أصبحت عدن مستعمرة منذ عام 1937م. واصطدمت الحركة المسرحية بواقع الحرب العالمية الثانية، فجمدت التجربة الثانية _ في منتصف الأربعينيات _ سنوات عدة إلى أن عاد مسار النص المسرحي واتسم بالخروج عن الموضوعات التاريخية والعاطفية إلى مشاهدات وأفكار ملتقطة من الحياة، في أثناء فترة النضال ضد الاستعمار البريطاني في المدة 1963 _ 1967م، فهذه المدة تأثر النص المسرحي بحركة النضال الثورية.

ويعدُّ سعيد اليافعي، وإسماعيل لامبو وأخيه قاسم لامبو، وعبدالحميد فارع، ومحمد فارع، والضوراني، وأحمد المنصب، ومحمد سيف المسرح، والفنان الكبير الأستاذ أسكندر ثابت وغيرهم الكثير من رواد المسرح في عدن منذ الثلاثينيات.

وقدّم الفنّان محمد الدقمي مسرحية(جزاء الخيانة) عام 1948م، في مدينة عدن، وهي مأخوذة من مسرحية (عُطَيل) لشكسبير، وقد كيّف أحداثها، مع إعادة صياغة المشهد الأخير بنهاية سعيدة.

وفي عدن بدأ مسرح الجيبpocket Theatre)) أي المسرح المتنقل، وكان من رواده (عبده قاسم الشوذري) الذي كان رئيسًا لنادي النور لشباب الأخمور في شارع الهاشمي في مدينة الشيخ عثمان، وكان سكرتيرًا لنادي الواي، ونادي العمال الفنيين، ومن نادي النور لشباب الأخمور انطلق مسرح الجيب متنقلًا في شوارع الشيخ عثمان، ومثلوا مسرحيات عالمية منها:(روميو وجوليت) و(الخيانة والوفاء) و(فتوح الشام) و(هاميلت) و(الزير سالم) وغيرها، وبكل مستلزمات المسرح الحديث اليوم كالمؤثرات الصوتية، والضوئية، وضرب العنق بالسيف بطريقة كان يصدقها المشاهد حينما كان يرى، وكأن الرأس قد فصل عن الجثة والدم يملأ خشبة المسرح، وأما الأدوار النسائية فكانت شخصياتها الخاصة كمحمد سيف مسرج، ورزق ضيف الله، وعبدالحميد فارع، وعبدالقادر صالح الملقب بالبيريش، وعلي إبراهيم، والعمير في فرقة المصافي الكوميدية، وفيصل الحداد في مركز المنصورة الثقافي والاجتماعي، وغيرهم الكثير.

وهناك شخصيات كوميدية اضحكت الجمهور وبتواصل كعبدالحميد فارع الدبعي، ورزق ضيف الله، وسالم عبدالرب، وغيرهم من رواد هذا المسرح كالفنان المسرحي المتألق عبدالله شرف الخامري، الموهبة الفنية الكوميدية الناجحة، التي تمَّ اكتشافها في

المدرسة المتوسطة في الشيخ عثمان، واسندت لها العديد من الأدوار الفكاهية داخل المدرسة وخارج المدرسة من خلال مسرح الجيب، الذي كانت تقيمه لجان الدفاع الشعبي آنذاك، وكان يقام في كل الشوارع في مدينة الشيخ عثمان وضواحيها.

أما مسرح التليفزيون فكان له رجاله كالأستاذ محمود أربد والأستاذ محمود قردش(عمو قردش) رائد برامج الأطفال في تلفزيون وإذاعة عدن هو والأستاذ الكبير علوي السقاف، ونجلاء شمسان وغيرهم كالفنان الكبير أحمد المسيبلي، وعمر الرخم، وأحمد الشميري الممثل والمخرج المسرحي المعروف والكثير الكثير، ويفترض أن تكون تلك الأعمال المسرحية الرائدة الفكاهية والاجتماعية والتاريخية ما زالت موجودةً في تلفزيون عدن، ويحبذ إعادتها حتى تعرف الأجيال الحاضرة واللاحقة عظمة آبائهم وأجدادهم.

أما على صعيد الكتابة المسرحية فيرجع تاريخ أول نص مسرحي إلى منتصف القرن السادس عشر الميلادي من خلال نص حوار مسرحي أثبته المؤرخ المعروف الأستاذ محمد عبدالقادر بامطرف في مؤلف له ومخطوط، ومؤلف هذا الحوار المسرحي هو الشيخ الفقيه عبدالله عمر بامخرمة.

أما عن أوائل المسرحيات التي نشرت في كتب في الفترة ما بين 1925 _ 1964 فهي المسرحية الشعرية «إلى فلسطين» من تأليف الشاعر حسن عبدالرحمن بن عبيدالله، وتتناول قضية فلسطين وموقف بريطانيا وأمريكا منها. ونشرت مسرحية «ليلة العيد» للكاتب حمزة علي لقمان، وهي مسرحية قصتها مقتبسة من قصة «أغنية عيد الميلاد» لتشارلز ديكنز. وعام 1956 نشر الكاتب محمد عبده غانم مسرحيته الشعرية «سيف بن ذيزن» التي تعدُّ واحدة من أشهر المسرحيات التي نشرت، ونشر الكاتب عبدالله سالم باوزير كتابًا بعنوان «الرمال الذهبية» عام 1956م، وقد تضمن مجموعة قصص ومسرحيات قصيرة. وفي عام 1957 نشرت مسرحية «العدل المفقود» للكاتب علي محمد لقمان، الذي نشرت له أيضًا في أغسطس 1957م مسرحية «قيس وليلى» وليس لها من الحكاية المعروفة عن قيس وليلى سوى الاسم، إذ إن المسرحية تدور أحداثها في الجنوب، وتحتشد بالشخصيات والنقد الاجتماعي والسياسي، وله عدد من المسرحيات آخرها نشر عام 1966 بعنوان «سمراء العرب» ومن الواضح أن الأستاذ علي محمد لقمان تصدر الحياة الثقافية لعشرين عامًا من الزمن ما بين عام 1946 وعام 1966م.

وخلال تلك المدة تم تشكيل فرقة المسرح الوطني عدن، ويعود الفضل الأكبر في ذلك للأستاذ المرحوم عبدالله صالح المسيبلي، ومن الفرق المتواجدة آنذاك المتحدون وأكتوبر والطليعي والرخم وكان النصيب الأكبر لفرقة المصافي الكوميدية العريقة.

وهكذا شهدت عدن منذ ثلاثينات القرن الماضي ظهور الفرق المسرحية التي توالت عروضها، وأفرزت أعدادًا من المؤلفين والممثلين، بإمكانيات فردية ومقومات بسيطة، غير أن الجمهور العدني كان يوليها اهتمامًا كبيرًا، وهو ما شجّع على استمرارها وتزايدها وتطورها، ولم تأتِ حقبة الخمسينيات إلا والملامح الأولى قد تشكَّلت لحركة مسرحية، توضحت معالمها تمامًا خلال عقد الستينيات، الذي شهد انتشارًا للفرق، واشتهارًا للأعمال والفنانين، واتساع نطاق الجمهور، فوجدت(هيئة الفنون والتمثيل) ومن أولئك محمود أربد، والحمزي، ومحمد رشيد، فكانوا من أبرز المؤسسين للفرق في عدن، فوجدت فرقة البحصو في القاهرة، وفي البريقة وجدت فرقة(الهيئة العربية للتمثيل) لعلي وعبدالله المسيبلي، وقد كان لافتتاح تلفزيون عدن في 11 سبتمبر 1964م دور كبير في تعريف الأهالي بفن المسرح بصورة أوضح من خلال عرض الأعمال العربية والمحلية والبرامج الخاصة بالتناول الإعلامي والنقدي للنشاط المسرحي.

والحديث عن المسرح المدرسي في عدن شيق وذو شجون عندما كانت القيادات التربوية تولي مثل هذه الأنشطة المدرسية كل اهتمامها، حيث كان جزءًا من المناهج المدرسية، كمادة الموسيقى والتربية البدنية والتدبير المنزلي والتي اختفت تمامًا من مدارسنا اليوم.

لقد كانت في كل مدرسة _ في مدينة عدن أكانت للبنين أم البنات _ فرقًا مسرحية وموسيقية ورياضية، وكانت الأنشطة متعددة يمارسها الطلاب في المساء أي بعد الدراسة.. وكان هناك أساتذة مختصين لمثل هذه الأنشطة، ووجدت أيضًا الفرق الكشفية التي كان لها العديد من الأنشطة المسرحية والموسيقية والرياضية والفنية، تلك الفترة الذهبية من تاريخ عدن.. المسرح والرياضة والفن والموسيقى.. هل سيعاد لهذه المدينة (عدن) خاصة أمجادها العظيمة، وتعود لمدارسها وأجهزتها الإعلامية المرئية والمسموعة مثل تلك الأعمال المسرحية الرائعة.. ومنها تنطلق لتواكب التطورات العالمية في هذا المجال؟.

وظهر مسرح الأطفال أيضًا في عدن من خلال تجربة المسرح المدرسي ومسرح العرائس والقرقوز، وقد ظهور المسرح المدرسي في البداية في عدن منذ منتصف الثلاثينيات، وتطور وازدهر في الأربعينيات والخمسينيات، وكان أول ظهور في مدينة عدن عام

1942م بمسرح الأراجوز علي يد الفنان المسرحي شمسان الملقب(حمبص) الذي بدء في كتابة الأعمال المقدمة بواسطة هذا النوع من فنون المسرح(الدمى المتحركة في اليد)، وقد برع هذا الفنان بتقليد الأصوات وتحريك الدمى هو وزميلة علي حسن الملقب(علي حسن طز البيسة)، وكان لديهم مسرح خشبي خفيف صغير متنقل يقدم عروضه في مواقع الاحتفالات والمناسبات للمتفرج الصغير، وحتى الكبار يشاهدون هذه العروض المسلية والممتعة والهادفة والشيقة.

فقدمت عدة مسرحيات ذات طابع تاريخي وديني وإسلامي وفكاهي، وكانت موجهة للأطفال كمسرحية (غزوة اليرموك، فتح القادسية، مصرع كليوباترا، حلاق بغداد، طارق بن زياد، قصص جحا، صقر قريش). وكل هذه المسرحيات المتنوعة كانت تقدم آنذاك على مسارح مدينة عدن الجنوبية.

***

ويمكن القول إن الحاجة قد ولدت تلك الإبداعات المسرحية إذ كان في تجهيل مفروض على شعب الجنوب في ظل الاحتلال البريطاني، وكانت ثمة سياسة تجهيل متبعة في كل المحميات المحيطة بعدن، ولم تبنَ مدارس ومعاهد تعليمية إلا في عدن، وسمح بدخولها لمواليد عدن أما مواليد غيرها من المناطق والمحميات المحيطة بها فيلتحقون بالمكاتب التقليدية، وفي ظل ذلك الوضع تفشت الأمية ودعت الحاجة إلى ظهور أنواع أدبية وفنية جديدة على الساحة تعبر عن الواقع والطموح لدى أبناء الشعب الأحرار، ومن هنا كانت البدايات الأولى لمسرح الدمى المبتكر في الجنوب، حيث مثل أهم أشكال المقاومة الثقافية في عصر الاستعمار.

ولم يدخل مسرح الدمى في هذه البلاد بشكله المنظور اليوم، إلا أن بعض ملامحه وجدت بشكل بدائي على يد تلك الشخصيات من أبناء عدن، ولا أحد يعلم كيف تعلمت هذا الفن، فعرفت عدن(شمسان حمبص) و(أبو شنب) و(أبو تمزة)، كانوا يتقنون ملاعبة الدمى وعرضها في المناسبات الدينية والأعياد وزيارة الأولياء وموالدهم والتنقل ما بين عدن ولحج بحسب المناسبات، وكانوا يقدمون العديد من القصص باللهجة الدارجة وبشكل فكاهي ومن واقع الحياة اليومية، مما جعلهم يجذبون الصغار والكبار لمسرحهم رغم أنهم كانوا أميين. وكما يذكر فإن هؤلاء كانوا يقدمون في عروضهم بعض القصص باللهجة الدارجة وبقالب فكاهي يستهوي الصغار والكبار، وكانت منتزعة من واقع حياة الناس البسطاء الذين يعيشون حياتهم في الأسواق والشوارع، وكان مؤدو هذا الفن يمتلكون قدرات خارقة على تحويل المبكيات أو معاناة الفقراء إلى مضحكات شأنهم شأن المبدعين فكانوا يبتكرون كل جديد.

وقد كان الابتكار في مسرح الدمى آنذاك وليد الحاجة إلى وسيلة تعبير شعبية لها القدرة على التأثير والنفاذ إلى قلوب العامة وعقولهم بما يتوائم مع ثقافتهم ووعيهم وهذه الشخصيات(حمبص) و(أبو شنب) و(أبو تمزة) وغيرهم كانت شخصيات مجهولة في الحقيقة تتلمذت على أيدي شخصيات اجتماعية معروفة وأساتذة أرشدوهم على حقيقة الوعي بأهمية الوعي الشعبي، وهم الذين جعلوهم أيضًا يناقشون قضايا المجتمع وهمومه والخروج برأي يتعلم منه الناس إدراك المعاناة اليومية التي يعانيها أبناء البلد من سياسة المستعمر وأتباعه.

كانت دمى حمبص وهؤلاء محرضة دائمًا على المستعمر، ولسان هم الوطن، فجاءت مدفوعة من سياسيين ومثقفين كبار في عدن خصوصًا حين كانت الجريدة والإذاعة غائبتين ولا سبيل لإيقاد جذوة الثورة في نفوس المواطنين إلا من خلال الابتكار في هذا الفن الشعبي، وهناك من يعيد بدايات الاستقلال في الجنوب من الاستعمار الإنجليزي إلى ظهور مسرح الدمى في ساحات الجنوب.

وكانت تعرض بعض الدمى من خلف ستار صغير يلعب بها الفنان(حمبص) بأصابعه ويحركها كيفما أراد مصاحبًا حركتها ببعض العبارات التي كان يمثلها بصوته المتلون وبموهبته الفطرية، فعرف الناس مسرحية(السيد حمبص) التي كان صاحبها يمتلك كل الوسائل التمثيلية والترفيهية، وكان يستخدم وسائل مسرحية بدائية ويمارسها بطريقة ارتجالية أمام عامة الناس في الشارع أو في الموالد والمناسبات (الزيارات) فكان يحمل أدواته على ظهره ويتجول بها في أماكن التجمع في الشوارع والأسواق، وكانت هذه الأدوات بما يسمى(بصندوق الدنيا) أو شيئًا مصغرًا لمسرح خيال الظل.

كان حمبص يضفي عليها بشخصيته البارعة وموهبته الفطرية رونقًا يلفت إليه الأنظار وحيثما كان يعرض(بضاعته) كان يحصل على أجر زهيد يدفعه الناس الذين يتجمهرون أو يتجمعون من حوله لمشاهدة العرض... وكثير ما اشتهر بالمحاكاة أو

التقليد للشخصيات الأخرى من أقوالها وأفعالها لإضحاك الآخرين ونقدهم على حد سواء. فتطبع بها فنه وراجت زمنًا جعلت منه شخصية معروفة للكبار والصغار في كل حي وشارع، وعندما يذكر مسرح حمبص الجوال يذكر أيضًا ما عرف بمسرح «الكركوس» وبطله حمبص...، والكركوس كلمة مأخوذة من الأراجوز «القرقوز» وهو اسم مأخوذ من التركية وتعني «الدمى المتحركة...»

ولا تتوفر أي صورة توثيقية لمسرح حمبص في ذلك العهد لدى جهات التوثيق أو لدى المستعمر، ربما لأنها كانت محرضة على المستعمر وتستغفله من جهة وشحة أدوات التوثيق آنذاك لدى الناس من جهة أخرى.

وبالنظر إلى محتوى أصحاب هذا الدور الكبير على هذا الصعيد من حيث قواهم المحركة، فهم وبلا أدنى شكٍ شكلوا محركًا قياديًا لمختلف الفئات بكل انتماءاتها الفكرية السياسية والشعبية، بهذا المعنى أصبح واضحًا التناسب بين الوعي والعفوية بكل ما يحمله هذا التعبير من معنى، غيّر تصورات كثيرين عن النضال وأساليبه على صعيد الدعاية والتحريض وخلق البلبلة بغرض محاربة الأفكار الاستعمارية وإعادة توجيه عقول الناس باتجاه الضحكة الساخرة والنكتة الساخنة، إضافة إلى ما حققه هذا الشكل بغض النظر على تهريجه أحيانًا.

وقد أظهر(الأراجوز) قدرته الإبداعية الخاصة على تحدي آلة القمع الاستعمارية، وهناك من يستذكر بعض العبارات التي يرددها الأهالي بعد(طز البيسة) بائع التباتيك الجوال – على أكثر من صعيد، ومنها ما هو على صلة بالسياسة التي أخذت بالتبلور في المجتمع العدني آنذاك، ومنها ما أسهم في خلق حالة من الوعي بالمفاهيم الاجتماعية، ويمكن أن يُستدل على هذا الموضوع من طريقة الاستجابة الجماهيرية لتلك النكات التي أصبحت لها دلالة ومغزى يتوجب تحليله بشكل مختلف عن الأساليب التي مضت عليها التجارب التعبيرية الأخرى، وفي هذا السياق ممكن ذكر – على سبيل المثال لا الحصر – ((يا مُسلِّم يا سلام الحمامة أكلت الطعام، وكله على السنبل يا رنبل، فُك البوك يا بن بوك، فين كنتِ يا مليحة فين كنتِ مستريحة، ونصراني في عانة عانتين نصراني ملعون والدين، والطير إذا يحبك با يهبلك وإذا الطير ما يحبك ما بيهبلك))، وهذه المقولات لم تبتعد في مرامها عن مجمل المقولات التي طرأت على الظروف العامة بحيث أصبحت أية عبارة أو حركة كفيلة بانتزاع الضحكة بصورةٍ لا تخلو من الدهشة.

وأخذ الأراجوز يرسخ معنى جديد للأطفال على نطاق واسع في أحياء عدن وشوارعها، وأصبحت عربة بائع(التباتيك) معبرة عن اهتماماتهم من زوايا مختلفة، وقد وجد هذا النوع ترجمته الثقافية بإقبال الأطفال عليه من كل الأعمار. ولعل أحد عوامل انتشار فن(الأرجوز) هو نضج العامل الذاتي وتنامي الوعي بين أوساط الشعب وتبلور العملية التربوية التي شكلت نقلة نوعية تاريخية في الفكر والممارسة على مستوى التحولات البنيوية والنوعية.

وهذه العوامل لها آثارها المرحلية في استلهام الجديد وتبديل ما هو قائم لكل ما رافق تجربة الكبار برؤية جديدة تعترف بحق الطفل وتمنحه خصائصه الملائمة بصورةٍ مباشرةٍ.

هذا جزء من المخطط الفني للكبار وجزء من محاولة تقديمه للصغار؛ لأنّه لو عدنا إلى الأربعينات ستكون هناك المرأة العاصية التي لا تسمع الكلام والدوارة والعسكري والرجل العاطل والجارة النقمة أو النمامة، وبالتالي يمكن أن يكون هناك طفل مشاغب وآخر شره في النهاية، نجد أنّ(الأراجوز) له تنميطاته أي قيمه النمطية وهي جزء من المجتمع في ذلك الحين والحكاية الصالحة للأسرة وللأطفال بينهم.

وهذا الفن(الأراجوز) شهد تراجعًا واضحًا بعد مدة طويلة من النجاح بسبب عددٍ من المستجدات جعل من الفن الذي لا يقبل بديلًا له، مشروعًا غير مكتمل، وعندها يبقى السؤال الأهم كيف استطاع (الأراجوز) بوصفه نتاجًا شعبيًا أن يدير ظهره للثقافة الشعبية بعد عشرين عامًا من تجسيده على أرض الواقع فتحول إلى مجرد مظلة للخدع المضروبة؟ ويقينًا أنّ قدرة الحاوي الهندي على قطع رأسه من(الترقوة) وحمله بين يديه، خدعة بصرية مقنعة صحيح أنّها لم تقلل من قيمة التجربة المحلية بكل ما توصل إليه عبدالرحيم(أبو شنب) و(حمبص) من مهارة شكلت ظاهرة فنية مشهورة آنذاك، ولكنهم أدركوا تمامًا أنّ ما قام به الحاوي الهندي كان أدهى بكثير؛ لأنّه فصل رأسه عن جسده وحمله بين يديه(ذلك هو الفرق وتلك هي الخارقة) وهذه وتلك كانت مفقودة بشكل واضح في التجربة المحلية.

وبالطبع الأراجوز مثلما أثار الإعجاب بقدر لا يستهان به تراجع إلى الوراء بالقدر نفسه، فلم يكن هناك تلفزيون بعد ولا برامج أطفال تعترض طريق نجاحه، ولكن من أسباب تراجعه أمام شعبية(البالب فيكشن) أو الكوميكس (COMECS) لذات السبب

فتخلص الناس من تحيزهم للعرائس و(الناظور) أو صندوق الدنيا بعد أن خصصت دور العرض جزءًا من عرضها يوميًا للرسوم المتحركة أو الرسوم الكارتونية بوصفها حدثًا جديدًا أدى في نهاية المطاف إلى إعفاء(الأراجوز) وتباتيك البائع الجوال من مهامهم وخصوصًا بعد دخول التلفزيون إلى عدن في بداية الستينات، وقد انعكس ذلك سلبًا على تراجع جماهيرية الكركوس وغيره من الألعاب الشعبية التي أصبحت عروضه موسمية، واقتصرت على تقديم أنواع قديمة ومكشوفة، وبالتالي توقف الابتكار وندر أيضًا في مسرح الدمى.

ورغم الظهور المبكر للمسرح في عدن بوصفه نوعًا فنيًا مستقلًا، فالحكم الاستعماري الإنجليزي للجنوب أو الحكومات المحلية الموالية للإنجليز كالسلطنات لم تحاول أن تتدخل بشيء مهم يساعد على تطوير المسرح، ببناء دار أو قاعة للمسرح، ولا بتوفير منح دراسية خاصة به، أو تقديم بعض الخبرة، أو استقدام بعض الخبراء المسرحيين، ولم يتعامل الإنجليز مع المسرح في الجنوب كما يتعاملون معه في لندن أو في بعض مستعمراتهم كالهند مثلًا بل إنهم على العكس كانوا يتدخلون في إيقاف أي عمل مسرحي يعالج قضايا الوطن والحرية والتحرر، وحرضت عليهم أئمة المساجد الذين كانوا يهاجمون المسرح والمسرحيين بحجة أن بعضهم يتقمصون أدوار النساء أو يشجعون المرأة على التمثيل.

وفرضت السلطة الاستعمارية وأعوانها الرقابة على النصوص المعدة أو المقتبسة، حتى يتأكدوا من أنها لا تحمل إشارةً أو تصريحًا أو تلميحًا إلى الاستعمار ومساوئ الاحتلال خاصة بعد الحرب العالمية الثانية، ومع قيام ثورة مصر وظهور الحركات الوطنية عمل الإنجليز على احتواء بعض المسرحيين أو تمزيق بعض الفرق بالترغيب والترهيب.

المطلب الثاني

المسرح في عدن بعد الاستقلال من الاحتلال البريطاني

بدأت مرحلة(المسرح التلفزيوني) ضمن برامج تلفزيون عدن، خلال تلك المدة وانتشرت الفرق المسرحية في محافظات الجنوب، فتشكلت فرقة وطنية للمسرح في عدن؛ ليشهد المسرح نشاطًا ملحوظًا، وكان نشاطه متواصلًا في تلك المرحلة التي يطلق عليها المسرحيون(المرحلة الذهبية) لمسرحهم؛ لأن المسرح دخل عقب إعادة تحقيق الوحدة في عام 1990م في أزمة تغييب مع غيره من الفنون.

فحدث السبعينيات والثمانينيات انعطافه مهمة انتشرت معها الفرق المسرحية، وتزايد أعداد المسرحيين من الجنسين في المحافظات، وارتفعت مؤشرات العروض، وتحققت له عديد من النجاحات.

فشهدت

وقامت وزارة الثقافة في عامي 1968 _ 1969م بجمع الفنانين الجنوبيين من كل الفرق لإنتاج عمل مسرحي مشترك، فأخذت الفرقة تخطط وتعد نفسها لتقديم بعض الأعمال المسرحية ذات الاتجاه السياسي والاجتماعي، وبحسب ما يمليه عليها ضميرها الوطني وجهدها الإبداعي، وقدمت باكورة الأعمال الفنية، مسرحية «شهيد الوطن»، في ملعب الحبيشي، من تأليف علي صالح المسيبلي، وإخراج شقيقه عبدالله صالح المسيبلي، وتمثيل علي أحمد يافعي ونخبة من النجوم اللامعين في ذاك الزمان، تلاها مسرحية(شهيد الوطن) و(قصة الثورة) و(أقوى من الموت)... وبعد عمل هذه الفرقة استعدت الحكومة بتقديم كافة الدعم المادي والمعنوي، وتشكلت فرق عديدة في محافظات الوطن الجنوبي، وتضمنت عناوينها إبراز صورة النضال الوطني ضد المستعمر كمسرحية(صورة من الماضي) ومسرحية(ثورة الشهداء) من نشاط المسرح في حضرموت. ومسرحية(خائن في خط النار) ومسرحية(ميلاد الثورة) فرقة لحج. ومسرحية (من أجل شعبي) ومسرحية(ثورة شعب) قدمتها فرقة أبين. كل هذه الأعمال أسهمت في خلق الحركة المسرحية وتطورها بشكل عام، وارتقت بالمسرح السياسي إلى أجنحة الفن المسرحي وقواعده المتطورة.

وفي عام 1975م. أقامت وزارة الثقافة أول دورة تأهيلية للفنانين والموهوبين، واستمرت لمدة عام كامل في عدن، دبلوم تأهيلي، وأثمرت هذه الدورة بتشكيل فرقة المسرح الوطني من خريجين هذه الدورة، ثم افتتاح معهد جميل غانم للفنون الجميلة الذي يعمل إلى اليوم على تأهيل الطلاب، في مجال المسرح والموسيقى والفنون التشكيليَّة، فرفد الساحة الفنية بالكثير من المخرجات، كما أن الدولة كانت تقوم على تقديم المنح والبعثات للطلاب إلى أوربا الشرقية ودول الاتحاد السوفيتي وبعض الدول العربية.

وقد كان تأسيس فرقة المسرح الوطني المشار إليها سابقًا في عام 1976م، بقرار وزاري أصدره رئيس الوزراء علي ناصر محمد آنذاك، وشكلت هيئتها الإدارية برئاسة عبدالله صالح المسيبلي. وأحمد علي يافعي سكرتيرًا، وأحمد عبدالله حسين، ومحمد عبدالرحيم أعضاء إداريين، وضمت كوكبة من المسرحين أمثال: عبدالله هادي السعدي، وأخوه علي هادي وعدد من الأعضاء من الفرق الأهلية ومن المواهب المسرحية، فقدمت هذه الفرقة مسرحية بعنوان(فاتنا اليوم) تأليف علي صالح مسيبلي في إبريل 1977م، وفي سبتمبر 1977م قدمت مسرحية بعنوان(ذي زرعتوه اصربوه) تأليف وإخراج علي أحمد يافعي، وأيضًا في ديسمبر 1977م قدمت الفرقة مسرحية بعنوان(التركة) تأليف سعيد عولقي. ومسرحية(غربان يا نظيرة).

وتأسيس هذا الكيان المسرحي يمثل صدى للثقافة وروح القومية التي كانت سائدة في تلك الفترة وعلى المدى التاريخي شكل معهد الفنون الجميلة منذ تأسيسه قبل ثلاثين عامًا نقطة محورية في مخرجات المسرح المؤهلة من الدارسين في قسم المسرح الذي تأسس في 1976م، والذين قدموا أعمالا كبيرة ومتنوعة وثرية، ووصل الأمر إلى تقديم أعمال مسرحية مباشرة على شاشة تلفزيون عدن في مرحلة السبعينات وما أعقبها من ازدهار حتى تفعيل دور المسرح المدرسي في المدارس ولا تزال الكثير من مدارس المحافظة شاهدة على حقبة ثرية حافلة بالحضور الإبداعي والفرادة الثقافية التي بصمت صورتها في الوعي المجتمعي والرقي والثقافة وروح المدنية.

ذاكرة المسرح العدني زاخرة بنجوم الفن والتمثيل الذين سطروا اسم للمسرح الجنوبي بحبر من ذهب على جدار التاريخ

المضيء، وكانت الفرق المسرحية كثيرة ومتعددة وولادة بالنجوم المبدعين كفرقة مصافي عدن التي تأسست في ستينيات القرن الماضي في مديرية البريقة وضمت نخبة من النجوم المتميزين بمجال المسرح والدراما.

ورغم ما مرَّ به الجنوب من مآسي وحروب إلا أن التجربة المسرحية لها إيجابيات ودور وطني بالعديد من المسرحيات. ففي مدة السبعينات والثمانينات حدث طفرة ثقافية فنية شهدت مظاهر مسرحية، فنشط المسرح المدرسي، ثم الشبابي مع نشاط الحركة الكشفية، وقيام معسكرات كشفية، وكذا مشاركات شبابية كشفية خارج البلاد، وكان المسرح من أهم الفعاليات، وإن كان النظام أكثر صرامة وكان المسرح الرسمي يغلب عليه الطابع الاحتفالي المناسباتي. ورغم ذلك قدمت مسرحيات تاريخية أو من التراث ومسرحيات دينية في مناسبات المولد النبوي والهجرة.

وفي عقد الثمانينيات من القرن الماضي كان يقام احتفال تقليدي جميل جدًّا، وهو الاحتفال بيوم المسرح العالمي وأسبوع المسرح الوطني.. وظهرت بوادر المسرح الكوميدي الاجتماعي والفرق الخاصة، وكان معهد الفنون في عدن منبرًا أكاديميًا وفنيًّا قويًا تم إضعاف دوره ببطيء بعد قيام الوحدة ثم أهمل بعد حرب 1994م.

أما ما يتعلق بمسرح الطفل خاصة فيعدُّ أبو بكر القيسي رائد هذا المسرح في عدن بعد الاستقلال، إذ قدَّم في عام 1968م للأطفال _ قبل أن يتوجه كليًا لمسرح الطفل _ مسرحية(الأميرة والأقزام السبعة) وهي مسرحية أسطورية شعرية غنائية للكاتب عبده بعيص وألحان أبو بكر زين عرسي.

وتشير المصادر بأن هذا الفنان المسرحي المبدع(أبا بكر القيسي) قد تبنى فكرة تقديم الدروس التربوية والأخلاقية للأطفال من خلال مسرح يتفق مع عقول الأطفال ويراعي مستوياتهم وعقولهم ويمثلها ممثلون أطفال، وكان ذلك في عام 1976م من خلال وزارة التربية والتعليم في عدن لتكون النواة الأولى لتأسيس مسرح الطفل في الجنوب، فكانت(الصرخة) أول مسرحية يقدمها القيسي، وهي مسرحية شعرية غنائية، للكاتب زين عيدروس، قدمتها مجموعة من طلبة مدرسة الزحف الأحمر – وتتناول صور العهد البائد.

وبعدها في عام 1977م، قدَّم مسرحية(المسيرة الكبرى) الغنائية للشاعر الغنائي والكاتب المسرحي زين عيدروس أيضًا _ ويعدّها بعضهم باكورة أعمال مسرح الطفل – قدمت من قبل ممثلين أطفال من رياض الأطفال، وقد لحنها الفنان أحمد محمد ناجي، وأخرجها أبو بكر القيسي. وبعدها قدم عمله المسرحي(أروى والتاريخ)، وهي مسرحية شعرية غنائية من تأليف زين عيدروس وإخراج القيسي، وتتحدث عن فترة حكم الملكة أروى بنت أحمد الصليحي أو كما يسميها بعضهم بلقيس الصغرى في زمن الدولة الصليحية.

وبعد مسرحية(أروى والتاريخ) أخرج القيسي عام 1977م أبريت(زائر الأرض)، وبعد ذلك قدم مسرحية غنائية استعراضية بعنوان(الذكرى)، وهي من تأليف عبده بعيص وأحمد الحمزي، وقام بتلحينها الفنان حسن فقيه وإخراج القيسي. وبعد هذه المسرحية (الذكرى) أخرج القيسي للأطفال مسرحية (بطاقة دعوة).

وفي عام 1978م أخرج القيسي مسرحية(النحلة ذات الطوق الأحمر) لعبد المجيد القاضي ولحنها أحمد محمد ناجي، وكانت بحسب الآراء من أنضج أعمال مسرح الطفل نصًّا وأداءً- وهي مسرحية رمزية تصور مجتمع الزنابير وتوصل بأسلوب مبسط وبعرض شيق فكرة أهمية التعاون والتكاتف والعمل الذي يجعل التغلب على مختلف الصعاب والعقبات وقهر التحديات أمرًا في غاية السهولة، وفي المسرحية ظهر الأطفال الذين مثلوها بأزياء مبتكرة تمثل النحل والزنابير... وكان أداؤهم جيدًا كما كان التصميم للديكور والإخراج موفقًا إلى حد كبير، وقد اشتركت هذه المسرحية في المسابقات الفنية المدرسية بمحافظة عدن ونالت الجائزة الاولى(كأس المحافظة) واختيرت لتمثيل المسرح المدرسي ومسرح الطفل في المهرجان الثالث لوزارة الثقافة والسياحة بعدن ونالت شهادة تقدير على عرضها.

وفي عام 1979م قدم مسرح العرائسي من إخراج أبي بكر القيسي مسرحية(الأسد والفأر)، وهي من تأليف أديب قاسم نعمان، وعرضت خلال اليوم العالمي للطفل في العديد من المدارس ورياض الأطفال والمراكز الثقافية، وقد لحن أشعارها الفنان أحمد محمد ناجي، وتتناول بشكل غنائي موسيقي الحكاية المعروفة بين الأسد والفأر وغرور القوي والاستهانة بالضعيف في مغزى رمزي واضح.

كما قدم القيسي للكاتب أديب قاسم مسرحية(فرفور الأسمر وعين الشمس) وهي مسرحية شعرية غنائية للأطفال، وقد لحنها

الفنان أحمد محمد ناجي، وتتناول بأسلوب رمزي من خلال حوار فرفور وفرفورة قضية وحدة اليمن والعراقيل التي كانت تعترض طريقها وحتمية اللقاء بينهما. ولا نقول اليوم إلا: يا ليت اللقاء ما كان.

ومن الأعمال المسرحية التي ألفها أحمد العلواني للأطفال مسرحية (الشرارة) وأخرجها أبو بكر القيسي، وتدور أحداثها حول انطلاقة ثورة 14 أكتوبر 1968م.

أما مسرح الدمى فقد قام الأستاذ أبو بكر القيسي والأستاذ عبدالله شرف بافتتاحه في عدن في عام 1982م، لكن هذه التجربة لم تحقق النجاح المطلوب لعدم وجود مسرح بالمعنى المطلوب؛ لأن هذا المسرح يحتاج إلى الديكور المسرحي والدمى والصور والإضاءة الجيدة التي تجذب المتلقي خاصة عندما يكون التراث والأسطورة والحكاية الشعبية فيها الكثير من الخيال المحبب للصغار والكبار، ولا يوجد لها مثيل في أدبنا الواقعي مثل جو الأميرات والساحرات والجنية والحيوانات الناطقة والطيور وغيرها من الصور الخيالية التي تحتاج إلى الدعم المادي من قبل الدولة فضلًا عن عراقيل أخرى كعدم توفر الدمى والاعتماد على شخصية واحدة وإن كانت شخصية مبتكرة، وهذه الصورة قد نشرتها صحيفة 14 اكتوبر عن مسرح الدمى حينها وشخصية بشبوش وأبو الريش التي ابتكرها القيسي وزميله شرف.

***

ويمكن القول إن عقد السبعينات والثمانينات أزهى عهود الحركة المسرحية، ففيها ظهرت عدة فرق مسرحية إلى جوار الفرق قديمة العهد، وكان معظمها مملوكا للدولة، ولم ينحصر حضورها في المشهد المحلي كما في السابق، بل امتد إلى المشاركة الخارجية وبالذات المهرجانات والمواسم المسرحية التي شهدتها مدن عربية وأوروبية. وكانت أبرز هذه الفرق فرقة «المسرح الوطني» في عدن. كما ظهرت أجيال من الكُتّاب والمخرجين والممثلين والفنيين المتخصصين والمحترفين والذين حظيَ معظمهم بفرص التأهيل الأكاديمي في كليات ومعاهد عربية وأوروبية عدة.

وأسهمت عوامل أخرى في نشر الوعي الجماهيري بالفن المسرحي واتساع رقعة نشاط وتطور الحركة المسرحية، من بينها: إنشاء مؤسسات مختصة بتخطيط النشاط المسرحي ورعايته، وتأسيس معهد للفنون يضم قسمًا للمسرح في عدن، وتشكيل فرق المسرح الجامعي والمدرسي، وتحطيم تابو المشاركة النسوية على الخشبة المسرحية، وازدياد رقعة الاهتمام بالنقد المسرحي المنهاجي، ومنح النشاط المسرحي حيزًا جيدًا من اهتمام الصحافة والإعلام، وقيام الإذاعة والتلفزة بإنتاج العروض المسرحية وبثها، وظهور «مسرح العرائس» بشكله المعروف في معظم الدول لتشكيل وعي مبكر بفن المسرح وقاعدة جمهور لدى الأطفال، فضلًا عن تكوين «مسرح الجيب» الذي كان يتنقل بين أحياء وضواحي المدن والقرى في عدن وحواليها لتقديم العروض القصيرة التي تستند على نصوص محليَّة وعربية ومُعرّبة تعالج قضايا تهم جمهور البسطاء من الناس.

المطلب الثالث

المسرح في عدن في عهد الاحتلال اليمني

بعد الاستقلال من الاحتلال البريطاني عام 1967م عاش شعب الجنوب في وضع دولة مستقلة لها كيانها الخاص رغم ما شابها من تحولات داخلية يمكن وصفها بالسلبية في مسار تاريخ دولة الجنوب إلا أن الوجه العام كان مشرقًا وإيجابيًا، فاستطاعت أن ترسي أسس نظام وقانون خضع له الكبير قبل الصغير، والتزم به عامة الشعب وخاصته، وسجل في مسار حياته العامة ومضات مضيئة لا يستطيع أن ينكرها أحد، أبرزها وأهمها التعليم والتحرر من الأمية، وقد شهدت له بذلك منظمة اليونسكو، وإذا كان التقدم واضحًا بهذا الاتجاه، فهو دليل عمَّا شهده هذا الشعب من مناحي التطور والازدهار في أوجه الحياة المختلفة، وكان الفن أحدها دون شك، فوجد الفنانون، واهتمت الدولة بتدريب الإنسان وتأهيليه في هذا الجانب، وبعثته للدراسة في الأكاديميات المختصة في دول أوربا وبعض الدول العربية، وأنشئت معهدًا خاصًا بذلك في مدينة عدن ما زال قائمًا حتى اليوم، كما سبق الإشارة في الصفحات السابقة، إلا أن دخول هذا الشعب في وحدة مع شريك طامع في أرض هذا الشعب، وحاسد لكل ما بلغه من تطور واكتسبه من مقدرات، جعله فريسة حاول ابتلاعها وهضمها منذ اللحظات الأولى لقيام هذه الوحدة في عام 1990م، وشن عليه غزوات عسكرية غاشمة جيش فيها قبائله ووظف فيها الدين الإسلامي تشريعًا في إباحة هذا الشعب ومقدراته، واستغل فيها تقلبات المسار التاريخي لشعب الجنوب بأوجهه السلبية، في عام 1994م، فاستطاع بها أن يتغلب على هذا الشعب المدني العاطفي، فسعى هذا الاحتلال بكل قوته وجبروته إلى تدمير حياة شعب الجنوب المادية والمعنوية، وطمس هويته، وتدمير كل مقوماته، وجعل سلاحه العسكري موجهًا على الدوام نحو هامات الإنسان الجنوبي، ووظف كل إمكانياته لتدمير وطمس كل ما يمت إلى حياة الإنسان على هذه الأرض، وكرر حربه العسكرية العامة والشاملة بكل ما يمتلكه من عدة حربية وثقافة حاقدة وحسده في آن؛ لكي يجعل من حياة الإنسان ومساره التاريخي على أرض الجنوب أثرًا بعد عين، إلا أن هذا الشعب قد أثبت بأنه شعب حي، يستسلم ليستعيد أنفاسه، ويسالم ليعيد ترتيب أوراقه، فشهدت هذه المدة منذ ما بعد الوحدة عدة تقلبات وتحولات في حياة هذا الشعب مع هذا الاحتلال، فكان لذلك تأثيره على مختلف أوجه الحياة في هذه الأرض، وكان للفن بشكل عام والمسرح بصفة خاصة في مدينة عدن نصيب بين طمس ومحاولة نهوض، ومن هنا سنتوقف في الصفحات اللاحقة أمام هذه المحطات البارزة وتأثيرها على الحياة الفنية وحال المسرح في عدن بشكل خاص، على النحو الآتي:

المسرح في عدن بعد الوحدة وحرب صيف 1994م

فقد المسرح بعد الوحدة نشاطه باختفاء مقوماته، منذ عقد التسعينيات، نتيجة تجاهله وتهميشه من قبل صانع القرار، لا سيما مع تكريس حضور قوى الإسلام السياسي ضمن بوتقة الحكم الذي هيمنت عليه القوى التقليدية عمومًا، والتي عملت على تهميش الفنون بما فيها (المسرح)، خوفًا من تأثيره في الوعي الجمعي؛ فأخرجته من المدرسة والجامعة؛ وبالتالي فقد هذا الفن أهم أوردة تغذيته، بموازاة تقليص حضوره في المؤسسة الثقافية الحكومية. وهنا خسر المسرح الكثير، لاعتماده على الدولة التي صارت تهمله وتقصيه!

فدولة الوحدة استقبلت المسرح وعناصره بخوفٍ سياسي وديني؛ ووصل الإسلاميون إلى كثير من المؤسسات ومنها الجامعات والمدارس، وهو ما أدَّى إلى وأد النشاط المسرحي بصفة خاصة ومسيرة الفنون بشكل عام، فغيبوها تمامًا من كل المؤسسات، وسعوا إلى وأدها في المجتمع أينما وجدت.

فأغلقت المسارح كالمسرح الوطني في التواهي، الذي جاء قرار إغلاقه بحجة عودة المبنى إلى مالكيه الشرعيين، علمًا أنه أُمم بعد الاستقلال الوطني واستفاد منه الناس. لكن منذ إغلاقه أهمل المبنى وتدهور وبات مرتعًا للغربان والعناكب والفئران ولم يستفد منه مالكوه ولا أهل عدن ومثقفوها. واليوم وبعد مرور قرن وعشرين عامًا من الزمن على تأسيس المسرح العدني أصبح نشاطه يشكل صفر على اليسار نظرًا لسياسة التهميش والقمع التي مورست ضد النشاط الثقافي، وأصبحت ميزانية وزارة الثقافة لم تتجاوز المرتبات ونفقات التشغيل المكتبي، وخرج صندوق التراث والتنمية الثقافية عن مسار الأهداف التي أُنشئ لأجلها. واقتصر النشاط المسرحي على العمل المناسباتي، وحتى تلك الأعمال المناسباتية لم تكن تظهر بمستوى المناسبة وفق وصف

أحد المهتمين؛ لأن التحضير لها كان يأخذ أيامًا قليلة تخرج خلالها الأعمال هزيلة لا تضيف شيئًا. فافتقد المسرح للاستمرارية والتواصل عرضًا وتأهيلًا، كان من الطبيعي أن يفقد كثيرًا من مقوماته؛ إذ أثّر انسحاب دور الدولة في الرعاية والاهتمام والدعم بمختلف أشكاله على الحركة المسرحية ورقعة نشاطها ومساحتها الجماهيرية وحضورها الثقافي الذي كان سائدًا ورائدًا حتى عقد الثمانينيات، فتلاشت واختفت الفرق المسرحية، وتعرضت الكوادر المسرحية للإحباط جراء انشغالها بالبحث عن لقمة العيش، ما تسبب في التحاق بعضها بمهن أخرى كبيع القات مثلًا، فيما تدهورت أوضاع خشبات العروض مع تراجع التأهيل وتوقف التعليم والابتعاث الخارجي في معظم الفنون وفي مقدمتها المسرح، وغير ذلك من الخسائر التي ظلت تنزف.

فتراجع المسرح وفقد تدريجيًّا بعض مقوماته؛ وكأنه صار ترفًا في وعي صناع القرار الثقافي في البلاد، وبقي المسرح وكل الفنون في البلد تفتقد لاستراتيجية نشاط وتطوير في برامج الوزارة المختصة، ومع بقاء المسرح بلا خطط أصبح هامشًا يقتصر حضوره على أعمال احتفائية. وفي عتمة تلك المرحلة عادت المبادرات الفردية لمسرح الشباب في عدن، وبخاصة مع بداية الألفية الثالثة في محاولات لتجاوز المألوف من العمل المسرحي المغيب حكوميًّا؛ وظلوا يحاولون عمل إنعاش متكرر للمسرح. ومن خلالها ظل هذا المسرح يحاول النهوض مجددًا ليسجل في كل عمل بارقة أمل وسط عتمة قاتمة حتى أتت حرب 2015م؛ فكانت المعاناة أكبر.

فبعد الوحدة وما تلاها من أحداث تعرض المسرح في عدن وغيرها من الفنون إلى عملية تدمير ممنهجة، صودرت فيها مقدرات ثقافية كثيرة لم يكن أولها المسرح ولا آخرها السينما؛ فأغلقت المسارح ودور العرض واختفى الإنتاج الفني والموسيقي والتلفزيوني، وتمَّ البسط على بعض المرافق وتحويلها إلى ممتلكات شخصية كمسرح ساحة الشهداء بزنجبار أو عامة ذات طابع تقديسي كسينما جعار التي حولها المجاهدون العائدون بلاد الأفغان إلى مسجد.

وفي عام 1995 توقفت العروض المسرحية التجارية نتيجة لحرب صيف 94، حيث نهبت ودمرت كل مسارح المدينة وأغلق المسرح الوطني في عدن، واكتفت الفرق المسرحية في مدينة عدن بتقديم العروض المسرحية في بعض المهرجانات النادرة وليوم واحد فقط في قاعات غير مؤهلة، وكانت هذه ضربة قاضية لتاريخ مدينة عدن المسرحي الذي بدأ في عام 1904م.

فبعد حرب صيف 1994 المؤلمة توقف عدد كبير من الفِرَق المسرحية في المحافظات الجنوبية، وخاصة في محافظة عدن، وكانت قبل ذلك تصول وتجول في تنافس يبعث على الفخر والاعتزاز، ولم تكتف بتقديم أعمالها في الداخل فحسب، بل كانت تمثل البلاد في المهرجانات الخارجية المختلفة، وكانت تنافس الكثير من الفرق المسرحية العربية. توقفت بسبب سطو بعض الجهات على مقراتها؛ تلك المقرات التي كانت كخلايا نحل؛ يجتمعون فيها ويعملون ويتدربون على أعمالهم الفنية المختلفة، قبل انتقالهم إلى المسرح لتقديم عروضهم. وبفقدانها مقراتها تفرق أعضاؤها وتوقف نشاطها. ومن تلك العوامل التي أدَّت إلى تغييب النشاط المسرحي، غياب الاهتمام بمعهد جميل غانم للفنون الجميلة. فغياب ذلك الاهتمام أثر سلبًا على مخرجاته ونشاطه العام. وعندما كان الاهتمام منصبًا على هذا الصرح، كان عدد الطلبة في تزايد. فعندما ينهي الطالب دراسته، وخاصة في قسم المسرح، يتم توظيفه مباشرة. ولعل تلك الميزة قد جعلت هذا المعهد قبلة للطلبة في الالتحاق. وكان المعهد يرسل أوائل الطلبة إلى الخارج؛ ليكونوا بعد إتمام دراساتهم العليا رافدًا لقوام هيئة التدريس بمثابة دماء جديدة، وفي ظل هذا الوضع الجديد مع الوحدة أصبح معهد الفنون، كما المسرح، يواصل نزيف كوادره الواحد بعد الآخر، دون وجود البديل، فقل نشاط المعهد كثيرًا في سنواته الأخيرة. وتلك الكوادر التي كانت ترفد لجسم الحركة الفنية أصبحت تعاني من البطالة بعد التخرج، مثلهم كمثل غيرهم من خريجي كليات الجامعات.

وإذا كان في الجنوب قبل الوحدة يقام احتفال تقليدي جميل جدًّا، وهو الاحتفال بيوم المسرح العالمي وأسبوع المسرح الوطني، فبعد الوحدة حتى عام 2005م لم تتم من هذه الاحتفالات إلا أربعة: الأول عام 1990م، والثاني عام 1993م، والثالث عام 1995م، والرابع الذي أقيم بعدن عام 2004م.

***

وممكن القول إن هذه المدينة(عدن) لم تستسلم كليًا، ولكنها كانت تحاول ولو بجهود شخصية وفردية معاودة الانبعاث من حين إلى آخر، وكان المسرح الجنوبي، في العام 2004م، في المهرجان الرابع الذي يقام بعد الوحدة والثاني بعد حرب صيف1994م، على موعد مع تجربة ملفتة للفنّان علي أحمد يافعي، عندما قدّم، في مدينة عدن، مسرحية(المربع الأرجواني)، مسرحية عكست القدرات الحقيقية لفنّاني المسرح في هذه البلاد، وكانت مثل ثمرة ناضجة لتزاوج الخبرة بالدراسة الأكاديمية لفنّ المسرح ومدارسه المختلفة. وأثبت ذلك العرض أنّ المسرح يمتلك نجومًا كبارًا قادرين على العطاء، ولكن في مسرح فقير يفتقد للخشبة والمكملات

الفنية اللازمة في الديكور والإضاءة والملابس والصوت والإكسسوارات.

وقال الفنّان علي أحمد يافعي، حينها، إنّه اعتمد بشكل شبه كلي، على الممثّل في رؤيته الإخراجية لمسرحية (المربع الأرجواني)، التي أعدّها كتوليفة مسرحية واحدة ذات نسق درامي متصاعد، لمشاهد من أربع مسرحيات لوليم شكسبير (يوليوس قيصر، هاملت، ريتشارد الثالث). وقُدّمت هذه المسرحية في عرضها الأول في مايو 2004م بمدينة عدن، ضمن (مهرجان ليالي عدن المسرحية) الذي قدم فيه أيضًا مسرحية(موقعة العصيد) من الموروث الشعبي إخراج قاسم عمر وكتبها الأستاذ محمد عبدالله سعد، ومسرحية(الكوت) فكرة هاشم السيد كتبها محمد صالح الشاعر وأخرجها سالم العباب، ومسرحية(صلاح الدين الأيوبي) قدمتها فرقة أكتوبر، ومسرحية(أمريكا شطح نطح) قدمتها فرقة المتحدون التي قدمت أعمالًا كوميدية مثل(وابلاشاه) و(هبله من الديش) و(الداهوفة) وغيرها، وأيضًا قدمت مسرحية للمسرح الوطني تحت عنوان(الجرو)، وهي مسرحية صامتة.

وعن إعداده لمسرحية (المربع الأرجواني)، قال اليافعي: "بالنسبة لي كمخرج هو أنّ هذا أول عمل أخرجه لشكسبير، والأمر الآخر إعجابي كقارئ بتلك المشاهد/ المناظر في أعمال شكسبير، ففكرت في كيفية توليفها بعمل واحد ذي نسق معين. ونوّهت إلى عدم الحكم على العرض بعدّه من مدرسة شكسبير، هو يحمل روح شكسبير، ولكن الرؤية والعرض نستطيع أن نسميه ما نشاء من التسميات؛ مسرح حر، مسرح تجريب.

وكانت التجربة الأكثر إثارة في عام 2004م في تعاطي المسرح مع أعمال شكسبير، إذ بعد 94 عامًا من عرض مسرحية (يوليوس قيصر) باللغة العربية عام 1910م، قدّم طلبة جامعة عدن تلك المسرحية باللغة الإنجليزية، كما كتبها وليم شكسبير، ليسجّلوا مفارقة تاريخية لم يحسبوا أمرها.

وباقتدارٍ، أقدم المخرج المسرحي جميل محفوظ ومساعده الفنّان فؤاد هويدي، على مغامرة محسوبة النتائج، عندما عرض مسرحية (يوليوس قيصر) الشهيرة باللغة الإنجليزية، بواسطة فريق موهوب من طلبة جامعة عدن، وعُدّ أول عرض مسرحي متكامل باللغة الإنجليزية يُقدَّم في الجنوب ودولة الاحتلال(اليمن)، استمرّ ساعة ونصف الساعة. ولثقة المخرج بنفسه وبقدرات فريقه التمثيليّ، قال حينها: «نحن قادرون على تقديم هذا العرض حتى في لندن موطن شكسبير».

لكن ظاهرة مثيرة للإعجاب والجدل معًا ظهرت بقوة في عدن سنة 2005م أزاحت شيئًا من ركام الركود الذي ساد المشهد المسرحي في الأعوام الأولى من الألفية الثالثة. تمثّلت هذه الظاهرة في فرقة من الشبان الهواة من الجنسين اسمها «خليج عدن» يقودها الكاتب والمخرج الشاب عمرو جمال.

وقد شكّلت هذه الفرقة حالة مُبهِجة أعادت لخشبة المسرح وهجها بعد خفوت، ولو في نطاق جغرافي وموسمي محدود، إذْ جاءت عروضها المتميزة بنصوصها الساخرة وتنفيذها الفني المبدع لتنعش الواقع المسرحي مجددًا، فأشعلت روح المنافسة بين الفرق، كما شجّعت فنانين محترفين وهواة على تأسيس فرقهم الخاصة ولو بإمكانيات فردية متواضعة.

وفرقة «خليج عدن» المسرحية دشنت بالتعاون مع إذاعة هولندا العالمية، سلسلة عروض مسرحية منها «حكاية أسامة» في عدد من المدارس بالمدينة، جاءت هذه الفرقة بوصفها مبادرات شبابية لإحياء دور المسرح في عدن، لتتناول قضايا العنف والتطرف، وبآلية المسرح التفاعلي، حيث يشارك الجمهور في إعادة بناء الأحداث وفق حوار مباشر مع الممثلين، فتعرض مشكلة وتترك أحداثها مفتوحة لتحفز المشاهدين على التفكير بحلولها، ويتاح للطلاب فيها أن يطلبوا من الممثلين إعادة مشهد معين ليقوموا بتغيير أحداثه حسب وجهة نظرهم لحل المشكلة.

ومسرحية «حكاية أسامة» من تأليف وإخراج عمرو جمال، وتمثيل: محمد ناجي بريك، وأكرم مختار، وهشام الحمادي، وعبير عبدالكريم، وعلي أحمد يحيى، وهي مسرحية توعية تناقش بشكل رئيس ظاهرة التسلح والانضمام للجماعات المسلحة، أسباب الظاهرة ونتائجها.

وقد خضعت الفرقة لدورة مكثفة في المسرح التفاعلي في الأردن تحت إشراف إذاعة هولندا العالمية، ومن أعمالها المسرحية «صرف غير صحي» التي عرضت في أكتوبر(تشرين الأول) 2014م، وتوقف نشاط الفرقة في عام 2015 بسبب الحرب الثانية على الجنوب من قبل الاحتلال اليمني.

وهذه الفرقة تأسست وأشهرت رسميًا، في مايو 2005م من خلال أول عرض مسرحي لها، وهو «عائلة دوت كوم» قدم في مهرجان «ليالي عدن المسرحية». وقبل تأسيس الفرقة كان أعضاؤها يتبعون فرقة «المسرح المدرسي» في مدينة عدن، التي حققت

في تلك الفترة نجاحات كبيرة، ونالت خلال عامي 2000 و2001 الكثير من الجوائز المحلية.

وعن تأسيسها ومسار نشاطها قال عمرو جمال في حديث لـ«الشرق الأوسط»: «نتيجة للظروف الخاصة لمدينة عدن بعد حرب صيف 94، كان على أعضاء فرقة خليج عدن البحث عن موقع بديل لتقديم عروضهم المسرحية الجماهيرية، وبعد بحث حثيث وقع الاختيار على مسرح سينما هريكن القابعة في قلب مدينة(كريتر) لتصبح هذه السينما العريقة بعد ذلك هي الموقع الرئيس لكل العروض المسرحية.

وتعاون أعضاء فرقة خليج عدن مع إدارة سينما هريكن ووضعوا قواعد إدارة العمل المسرحي التجاري معًا في ظل غياب تجربة رائدة لا تدعمها الدولة، بدءًا من البحث عن رعاة وداعمين وشركاء من المؤسسات والمنظمات وانتهاءً بتهيئة موقع العرض. وأردف: «خلال تلك الرحلة الطويلة استطاعت فرقة خليج عدن أن تخلق تجربة رائدة في إدارة العمل المسرحي لتصبح القواعد التي سارت عليها هي المثال الذي تحذو حذوه كل الفرق المسرحية التي تأسست بعد نجاح(خليج عدن) وكذلك الفرق القديمة التي كان جزءًا كبيرًا من عملها قبل حرب 94 تموله الدولة.

المخرج عمرو جمال أكد أن عروض فرقة خليج عدن لم تنحصر على مدينة عدن فقط، بل قدمت الكثير من العروض الناجحة في مدن أخرى، كما تجاوزت الفرقة حدود البلاد لتكون أول فرقة تقدم عروضها في أوروبا، وذلك من خلال عرض مسرحيتها الشهيرة «معك نازل» في مدينة برلين في ألمانيا.

وهكذا أعادت فرقة خليج عدن الشابة نبضات الحياة لحاضرة الفن والأدب الأولى عدن، من خلال عروض مسرحية مباشرة؛ وجد فيهم الناس ملامسة مباشرة لمشكلاتهم وقضاياهم وجرأة في الطرح جسدت بحرفية عالية وبقالب كوميدي محبب، حتى أصبحت هذه العروض جزءًا من برنامج العائلات العدنية في الأعياد، ولهذا كان لا بد من استغلال مساحة التأثير هذه في محاربة الظواهر المستجدة على المجتمع والدخيلة على ثقافته.

وهكذا سارت هذه الفرقة في تقديم عروضها المسرحية في ظل غياب المقومات الأساسية للتمثيل، فاجتهد أعضاؤها في توفير الحد الأدنى المتاح، إذ رغم مضي أكثر من قرن من الزمان على تعرّف عدن على هذا الفن، أصبحت تفتقد إلى خشبة مسرح منذ أن قررت السلطات اليمنية عام 1997 إغلاق مبنى المسرح الوطني في التواهي بعدن، الذي كان إحدى المنارات الثقافية على مستوى المدينة والجزيرة العربية.

وبإغلاق ذلك المبنى أسدل الستار على النشاط الثقافي والمسرحي الذي شهدته عدن، إلى أن قامت فرقة خليج عدن بإعادة إحياء المسرح في عدن عام 2005م بعروضها المسرحية التي حاولت الاستمرار فيها، ولكنه يظل جهدًا فرديًا لا يسد فراغ غياب خشبة مسرح محترفة في مدينة المسرح.

ومما يذكر من أنشطة خجولة في هذه المدينة بعد حرب صيف 1994م، في منتصف نوفمبر 2009م أقيم عرض على مسرح مفتوح بساحل أبين بعدن أمام الجمهور بدون حواجز، العمل المسرحي الاستعراضي « سلومة تسلم»، والذي يتناول التراث الشفهي البحري، إخراج إنصاف علوي، وتمَّ العرض بالتعاون مع مكتب الثقافة والمركز الثقافي الفرنسي بعدن، وأتى ذلك في إطار تفعيل وتحفيز أنشطة المسرح التجريبي، تضمَّن العرض مجسم للوحات فنية لمقولات البحر والتراث البحري بقوالب كوميدية وتراجيدية، شاركت فيه فرقة(القلعة للرقص الشعبي) وفرقة (نسائم عدن الفنية) التابعة لمنتدى الباهيصمي الثقافي.

المطلب الرابع

المسرح بعدن في 2010م

من يوليس قيصر_ معك نازل.

تطفئ محافظة عدن بمناسبة اليوم العالمي للمسرح، يوم السبت 27/3/2010م شمعتها المئوية لبداية أول عروض المسرح وتأسيس العمل المسرحي فيها على وقع «الكوابيس» في سينما هيركن الذي تحولت إلى خشبة مسرح تنشدها الفرق المسرحية المختلفة لتقديم عروضها للجمهور المتعطش لأعمال مسرحية متميزة.

وفي الوقت الذي تختتم فيه جمعية مسرح عدن عروضها المسرحية المتنقلة في المديريات على مدى 13 يومًا قدمت فيها 6 فرق عروضًا مختلفةً ومتنوعةً على مسارح خشبية يحملونها من مديرية إلى أخرى، اختار الشاب والمخرج المسرحي صابر على يافعي الاحتفال بيوم المسرح العالمي الذي يصادف السبت 27/3/2010 بعرض عمل كوميدي (الكوابيس) بعد أن تعثر عرضه أكثر من مرة بسبب غياب خشبة مسرح في المحافظة، فيما يبدو رسالة احتجاجية على واقع المسرح في المحافظة وعدم تطويره والاهتمام به من قبل الحكومات المتعاقبة، فـ(كوابيس) مسرحية كوميدية اجتماعية هادفة تحوي نوعًا من الفنتازيا وتبحث في العلاقة الإنسانية والأسرية بين الآباء والأبناء وأحلامهم وطموحهم السلبية والإيجابية، معتمدة على تراجيديا الكوابيس التي يعيشها الأب في ظل الأوضاع الصعبة التي تواجهه، ويتخلل العمل المسرحي أغان وموسيقى تصويرية للفنان عبد الكسادي، وهذه المسرحية من بطولة نجم الدراما سالم العباب، والنجوم عيدروس عبدون، خالد حمدان، سوسن شرعبي، وهيب داود، ونبيلة مقطري، تأليف وإخراج صابر اليافعي، وساعده المخرج الفنان قاسم عمر، وصمم الديكور ماجد هتاري، ونفذه عمر فتيني.

وأتى بذات الاتجاه في نقد الواقع مسرحية منودرامية بعنوان (فقدان الذاكرة الأدبية) للكاتب المسرحي باتريك زوسكند، التي قدمها الشاب هديل عبدالحكيم، أحد خريجي معهد الفنون الجميلة، يوم الخميس 25/ 3/ 2010م، بقاعة معهد الفنون الجميلة. فتطرقت المسرحية إلى مشكلات أديب كبير فقد ذاكرته الأدبية تمسك بالفكرة ونسى كل عناوين الكتب التي قرأها طوال حياته، وبذلك قدمت المسرحية رسالة ضمنية حول أهمية الكتاب والقراءة في سبيل تغيير الحياة وأن الفكرة هي خلاصة القراءة والمعرفة سر تغيير الكون.

ويؤكد رئيس فرقة(مسرح عدن) فيصل بحصو على ضرورة أن يلعب الشباب دورًا مهمًا في المسرح بعد مئة عام، فهم رموز التجديد والتطوير، وينبغي في يوم المسرح العالمي تقدير جهودهم في تحفيزهم، وتذليل الصعوبات لهم في البرامج التأهيلية والتدريبية لدور تنموي أفضل. ويردف قائلًا: إن تجربة مسرح الشارع أو المسرح الشعبي هو السبيل الذي وجدته الجمعية لتفعيل قاعدة الحضور المسرحي في المديريات بـ6 أعمال مسرحية أعادت لفت الانتباه في تذكير الناس بوجود فنانين مسرحيين حتى بدون خشبة مسرح، في حين يستهجن التعقيدات التي تتطلبها الأعمال المسرحية من ديكور وتقنيات وعروض تهريجية وإبهامية لا يفهمها الجمهور، حد وصفه، مشيرًا إلى أن المسرح الشعبي هو الذي دخل إلى مدينة عدن، ومنه اكتسبت الريادة التاريخية، وليس المسرح الحديث الذي ليس له حتى خشبة مسرح ليقدم عروضه. ولعل قول رئيس فرقة مسرح عدن هذا ناتج عن إحباط من عدم التقدم والتطور في هذا المجال، ومحاولة الدفع بالممكن المتاح في البيئة المحلية للاستمرار.

منذ 100 عام شهدت مدينة عدن ريادة العمل المسرحي في الجزيرة والخليج كما شهدت المحافظة ازدهارًا للفرق الشعبية التي بدأت تنافس وتناضل بقوة لتأكيد مكانة المدينة وريادتها التاريخية انطلاقًا من معهد الفنون الجميلة الذي رفد الساحة الفنية بالكثير من المخرجات التي لم تجد لها مكانة في الوظيفة الحكومية وعلى أرض الواقع الذي قلت فيه الاهتمامات تجاه الأعمال الإبداعية وتراجعت مدنية المحافظة.

ويقول أستاذ المسرح بمعهد الفنون الجميلة د. عبد السلام عامر: إن عدم وجود خشبة مسرح في مدينة عدن يشكل فضيحة للجهات المعنية، ويرجع سبب ذلك إلى الدولة وسياساتها التي تعدُّ الفنون مجرد وسيلة إضافية ليس لها أهمية ولا تحتاج الدعم، في حين الدول التي تهتم بالتنمية الثقافية يكون المسرح في أولى اهتماماتها.

وفضلًا عمَّا سبق الإشارة إليه من معوقات، تقف أمام الكثير من المسرحيين الشباب، الذين يكابدون نضال حب العمل على خشبة المسرح، لجنة تقييم النصوص _ التي قد لا تكون لها علاقة بالعمل المسرحي _ حائلًا أمام إجازة أعمالهم، إذ يواجهون بعوائق كبيرة أمام إتاحتها للجمهور بالرغم من إغفالها للكثير من الجوانب السياسية، بالإضافة لانعدام الدعم الرسمي لهم كما هو حال المخرج الشاب عمر وجدي، رئيس فرقة صوت الفن، الذي طرق مختلف الجهات لأبسط متطلبات الدعم لقيام عرض مسرحي يتطلب إيجار قاعة وإضاءات وغير ذلك، فيما حصيلته لا تذكر، كما توجد في محافظة عدن قرابة 15 فرقةً مسرحيةً، منها «فرقة مصافي عدن» أقدم الفرق التي ما زالت تواصل نشاطاتها منذ 1958م.

ومع كل ذلك وصل مشاهدو عروض مسرحية «معك نازل» التي قدمتها فرقة خليج عدن المسرحية في سينما هيركن في إجازة عيد الأضحى المبارك قرابة عشرة ألف مشاهد، ولولا الدعم الألماني الذي قدّم لما كان لها أن تقدم، ما يعني أن الدعم المحلي مغيب، رغم تفاعل الجمهور وتعطشهم للمسرح.

أما مسرح الدمى فقد غيب في الجنوب عامةً وعدن خاصةً بعد الوحدة وما تلاها من حرب صيف 1994م، ولم يذكر في عدن إلا مرَّة واحدة، وربما إعداده وإخراجه وتمثيله لم يكن من أبناء عدن، حيث احتضنت روضة البراعم النموذجية في مديرية المعلَّى الملتقى السنوي لرياض الأطفال في عام 2007م، فضم جميع رياض الأطفال في محافظة عدن، وقدمت فيه العديد من الأعمال المسرحية الخاصة بالأطفال، كان أبرزها مسرحية(الديك ذو القرن الأحمر) التي عرضت بواسطة الدمى المتحركة، وهي من تأليف(لينا جميل) وتحكي قصة خوف جميع الطيور من الاقتراب من الدجاج لاعتقادها أن الديك لديه قرن أحمر حاد، فتطلب الطيور من الصقر أن يخلصها من هذا الخوف، فيذهب الصقر إلى عند الديك، فيعرف منه أن ما يملكه هو عرف لين وليس قرنًا أحمرًا حادًا، فيقوم الصقر بالهجوم على إحدى الدجاجات، ويطير تاركًا الديك يصيح.. وهنا تكمن الحكمة من هذا العمل فكان الابتكار موضوعيًّا أما دمى المسرحية فكانت محاكاة.

وعقد منتدى البهيصمي الثقافي ندوة بعنوان: (مسرح الطفل والدمى) شددت على ضرورة إنشاء مسارح مدرسية في عدد من المدارس النموذجية، بالتنسيق مع وزارتي الثقافة والتربية والتعليم.

وإن كان هناك من نشاط بهذا الاتجاه يذكر فإن سلطة الاحتلال قد عملت على تركيز ذلك النشاط في المحافظات الشمالية(اليمن) لاسيما محافظة تعز وأمانة العاصمة، فهناك تعقد الورش، والدورات التدريبية من قبل المنظمات المحلية والدولية وبإشراف خبراء دوليين.

المطلب الرابع

المسرح في عدن بعد حرب 2015م

شهدت المحافظات الخاضعة لسلطة ما يسمَّى بالحكومة المعترف بها دوليًّا، خلال ما مضى من سنين الحرب، تنظيم دورتين من المهرجان الوطني للمسرح، واحتضنت الدورة الأولى مدينة عدن عام 2018؛ وعند الإعلان عن الدورة فوجئ المنظمون في وزارة الثقافة بعدم وجود خشبة عرض مؤهلة لاحتضان العروض جراء ما لحق الخشبات من تدمير بسبب الحرب. وعلى إثر ذلك، أطلقت وزارة الثقافة مشروع إعادة تأهيل مسرح «حافون» بالمعلَّى وقاعة ابن خلدون في كلية الآداب بجامعة عدن. ولم يشارك في الدورة سوى بضع فرق من بعض المحافظات، فقدم للمشاركة في هذا المهرجان 27 نصًّا مسرحيًّا، اختارت اللجنة منها وفقًا للشروط والمعايير المحددة عشرة نصوص مسرحية، وهي:

- الأولى(البريئة) تأليف مختار مقطري وإخراج محمد الرخم (عدن).
- الثانية(زبد) تأليف وإخراج عمر مكرم(عدن).
- الثالثة(ميس) تأليف هايل المذاري وإخراج أحمد جبارة(تعز).
- الرابعة(اللقاء العظيم) تأليف علي باكثير وإعداد وإخراج علي يافعي(عدن).
- الخامسة(استراحة المتقاتلين) تأليف وإخراج منير طلال(صنعاء).
- السادسة(هاملت يستيقظ متأخرًا) تأليف ممدوح عدوان وإخراج عدنان ناشر(الحديدة).
- السابعة(إغراء السنابل) تأليف خالد القحوم وإخراج عبدالهادي التميمي(حضرموت).
- الثامنة(من الجوال) تأليف إبراهيم الشاش وإخراج ياسر سّلام(عدن).
- التاسعة(انسى) تأليف عباس الحايك وإعداد سعيد عاطف وإخراج الدكتور عبدالسلام عامر(أبين).
- العاشرة والأخيرة (الطوق) تأليف محمود الورواري وإخراج محمد اليافعي(عدن).

أما في عام 2019، فلم تتمكن الوزارة من تنظيم الدورة الثانية للمهرجان، وتأخرت إلى العام التالي، وكانت المشاركة فيها مقصورة على بضع محافظات أيضًا جراء الحرب.

وفي عام 2022م بعد غياب فرقة(خليج عدن) أكثر من ثلاث سنوات إذ كان آخر عرض لها عام 2019م، تعود عروضها المسرحية في مدينة عدن، واختارت كنيسة قديمة لتقدم فيها عرض «هاملت»، من وحي الأدب العالمي للكاتب البريطاني وليام شكسبير، وكان الهدف من اختيار المكان هو لفت أنظار السلطات إلى المعالم التاريخية لمدينة عدن التي تضررت كثيرًا من الحرب والإهمال.

و(هاملت) مسرحية قُدِّمت باللهجة العدنية، بعد أن خضع أعضاؤها لتدريبات من قبل مسرح شكسبير جلوب في لندن ومسرح فولكانو في ويلز لمدة عامين، وبالشراكة مع المركز الثقافي البريطاني. قال عنها المخرج عمرو جمال: إن هذا العمل كان حلمًا يراوده منذ البدايات، وأن يتمكن من تنفيذه في مدينة عدن»، التي وصفها بأنها مدينة رائدة في العمل الفني والثقافي، وخاصة المسرح والسينما. وعن أسباب توقف عروض الفرقة، قال: إن غياب البنية التحتية من مسرح وتجهيزات صوتية وضوئية، كان السبب الرئيس في هذا التوقف منذ ما يزيد على ثلاث سنوات، إلى جانب غياب الدعم من الجهات الحكومية، فضلًا عن النظام السابق الذي عمد إلى إهمال هذا الجانب في عدن، وذهب لإقامة مراكز ثقافية في مدن ومحافظات نائية لا يوجد فيها نشاط فني، فيما لا تزال مدينة عدن بدون مركز ثقافي يضم مسرحًا وتجهيزات كاملة، كما أن ندرة المتخصصين في مجال الصوتيات والإضاءة تجعل الأمور أكثر صعوبة، ولا شك أن هذه الندرة التي يتحدث عنها ترجع إلى النظام السابق أيضًا الذي عمل على تهميش الفن لاسيما في الجنوب، ولم يعد مهتمًا بتأهيل وتدريب طلاب وابتعاثهم للدراسة في هذه الجوانب في البلدان التي توجد فيها أكاديميات ومعاهد متخصصة بمختلف أنواع الفنون.

هي عدن لن تسكت إلى الأبد، ففي 2023م فيلم توثيقي بعنوان: (أعيدوه لنا)، إخراج أيمن زكي، يحكي تاريخ المسرح وواقعه في عدن، والمناداة باستعادة النشاط المسرحي، وجاءت المطالبات خلال فعالية فنية لعرض هذا الفيلم، من قبل كيانات مجتمعية وشبابية، في مدينة عدن، باستعادة دور المسرح، وتوفير بنية تحتية مناسبة لإعادة الحراك الثقافي والفني في المدينة، وقال مخرج الفيلم، أيمن زكي: إن العمل يتناول قصة المسرح في عدن على مدار أكثر من قرن، ويسلط الضوء على الأعمال المهمة التي قام بها الفنانون والمسرحيون خلال تلك الفترة، وتأثيرها على المجتمع، ويضيف أن الفيلم يتطرق أيضًا إلى العوامل التي أدت إلى تدهور فن المسرح في عدن، سواءً أكانت متعلقة بالفنانين أنفسهم أم بالبنية التحتية المتاحة. كما استعرض الفيلم المحاولات الحالية لاستعادة هيبة المسرح في عدن، وإعادة إشاعة الفن والإبداع في المدينة، وهي محاولات فردية من بعض الفرق الفنية الخاصة، دون أي تدخل من الجهات الحكومية المعنية. وعقب عرض الفيلم، طالب المشاركون، من خلال نقاشاتهم، بضرورة إيجاد حلول لاستعادة دور المسرح، كتوفير بنية مسرحية ملائمة، وتشجيع الفرق المسرحية الشابة. وأشاروا إلى أهمية الدور التنويري والتثقيفي للمسرح، الذي يعكس ما يدور في الواقع، ويعمل على صناعة وعي المجتمع ورفع مستوى ثقافته.

***

ومما سبق يتبين التهميش للمسرح في مدينة عدن، وهذا التهميش طال كل المحافظات الجنوبيَّة، ويتبين بأن عدن خاصةً لم تصمت إلى الأبد وإنما ظلت تعاود الانبعاث من حين إلى آخر.

النتائج :

إن بدايات المسرح الأولى في الجنوب كانت بمدينة عدن في مستهل القرن الماضي؛ وهي البدايات التي أخذت تتبلور في العشرينيات؛ ليشهد المسرح في الثلاثينيات مرحلة جديدة من خلال مسرح الهواة والفرق الأهلية في عدن، وكان المسرح في البداية معتمدًا على المسرحيات الأجنبية المترجمة عن مسرحيات هندية وإنجليزية وبعد ذلك تطور إلى إعداد الروايات العربية التاريخية للمسرح. وقد نشط المسرح وشهد مناحي تطور متعددة في السبعينيات والثمانينيات.

مرحلة ما بعد مشروع الوحدة وما عقبها من أحداث كانت معاول هدم للفن الجنوبي بكافة أشكاله وأنواعه، وتم استهدافه بطريقة ممنهجة ومدرسة برعاية رسمية من قبل سلطة الاحتلال. وقد شهد الجنوب في هذه المدة محاولات فردية بين حين وآخر، الشعب يحب المسرح ويقبل عليه، إلا أن السياسات أصرت على دفنه وزرع عراقيل كثيرة وقفت في طريقه، ومن يعمل فهو متهم ومحارب من وزارة الثقافة وخطباء المساجد، ورغم وجود أحزاب كانت تدعي أنها ليبرالية إلا أن الجميع اتفق على التخلي عن المسرح؛ ولهذا فإن إهمال المؤسسة الرسمية وشح الإمكانات المادية من جهة، ومن جهة أخرى.

توالي الأزمات السياسية والحروب الطاحنة التي شهدتها البلاد لاسيما حرب صيف 94م التي أثّرت بصورة سلبية بالغة الحدّة على كل أوجه الحياة والمسرح من ضمنها بالضرورة، فالعديد من أشكال البنية التحتية للمسرح حصدتها الحروب واستولى على بقيتها أساطين الفساد الذين ترعرعوا بفضل تلك الحروب.. فيما راح بعض رموز الحركة المسرحية ينظرون بسخرية سوداء إلى واقع حالهم بأنهم أصيبوا بلعنة شبيهة بما يتعارف عليه أهل المسرح بلعنة هنري الثامن التي أصابت مسرح شكسبير.

تعرضت الفنون بكافة أشكالها وأنواعها في الجنوب إلى تدمير ممنهج، وكان الدين الإسلامي الموجه من دماج ومعبر أبرز معاول هدم كل جميل في الجنوب عبر أبنائه الذين ذهبوا إلى تلك المراكز الدينية بغرض التزود بالعلوم الشرعية؛ فعادوا إلى مناطقهم وقرائهم وهم مزودون بالمنع لكل فن شعبي أو مؤسسي وأياديهم تمتد لتخريب كل آثار ومقدرات هذا الشعب من مؤسسات فنية ولم تسلم منهم حتى الأضرحة وطقوس الاحتفالات الاجتماعية في الأعراس وغيرها من المناسبات التي يرافقها رقص أو غناء أو شرح أو أي طقس يحاكي الجانب العاطفي والوجداني في الإنسان.

وفي ظل هذا الوضع الباعث على الأسى والمثير للإحباط، هاجر عديد من المسرحيين - من مختلف التخصصات - ونزح بعضهم إلى وظائف أخرى، فيما لجأت البقية الباقية للاشتغال بالدراما التلفزيونية التي غدت إمكاناتها المالية وانتشارها الواسع مصدر إغراء لا يُقاوم لأهل المسرح فانتقلوا من الخشبة إلى الشاشة.

وفي غمرة هذا المشهد الموغل في تراجيديته، يرى كثيرون أن المسرح قد مات ولم يبقَ له إلاَّ الحصول على شهادة وفاته التي كتبتها الحرب الأخيرة في 2015م، فيما يرفض آخرون من أهل المسرح هذا المنطق، معتقدين بقناعة مدهشة أن الأمر لا يعدو أن يكون بمثابة بيات شتوي قارس وطويل.

يجمع كثير من المسرحيين على ضرورة تفعيل المسرح، وأن توجه الجهات المختصة بشكل جاد في استراتيجيتها التنموية للمضي قدمًا في خلق وعي مجتمعي يفكر بعقلانية وبوعي لحاضره ومستقبله من خلال القوة الناعمة في الفنون التي لا تقل أهمية عن قوى الضبط المجتمعي المتمثلة في القانون والشرطة وغيرها؛ لما تلعبه من دور تنويري يؤثر في الوعي باتجاه السلوك القويم، وهو الأمر الذي توليه الدول التي تعي أهمية الفنون والمسرح اهتمامًا كبيرًا في سلم أولوياتها، وتضع المسرح في أولى اهتماماتها إذا أرادت أن تحقق تنمية ثقافية.

يبقى للمسرح دور مهم بالذات في هذه الأيام مع انتشار الأفكار المتطرفة بين الشباب، ويعول أن يكون للمسرح دور في التوعية وزرع ثقافة التسامح والسلام، وهو دور نفتقده كثير لافتقاد الإمكانيات وإتاحة الفرصة للشباب في الولوج لهذه الفنون المساهمة في دور التوعية. وعادة تعمل البلدان خلال الحروب على توظيف المسرح في رفع مستوى الوعي الإنساني لدى المجتمع وإعادة الاعتبار للضمير الاجتماعي من خلال ترميم الخراب الذي تُحدثه الحرب في النفوس والضمائر، وهو الدور المغيب في بلادنا الذي يجب التفكير فيه.

تأخر الحركة المسرحية في البلاد وتمثلها مختلف الاتجاهات العالمية لا يرجع إلى المسرحيين، الذين اكتسبوا تخصصاتهم المسرحية في الدول العربية الشقيقة والدول الأجنبية الصديقة، فقد أهَّلتهم الدولة بمختلف التخصصات المسرحية، من إخراج، وتمثيل، وتأليف درامي وفني وتقني في مجال المسرح؛ لكن هذا التأخر بدرجة أساسية يرجع إلى عدم توفر لهم خشبة مسرح تنتمي لهم وتدفعهم إلى ممارسة تخصصاتهم المسرحية بشكل دائم وبدون انقطاع؛ فخشبة المسرح هي الصومعة المقدسة التي تجمع المسرحيين في محراب الفن، وتنمي إبداعاتهم، وتخلق فيما بينهم التنافس الإبداعي الشريف الذي يرفع من مستوى نتاجاتهم الفنية، وكذا تعود المشاهد على ارتياد المسرح بشكل مستمر، فخشبة المسرح للمسرحي كالهواء والماء لا يستطيع العمل بدونهما وخارجهما.

أن الفن المسرحي يختلف عن بقية الفنون المكتوبة والتعبيرية. فالأديب بإمكانه أن يكتب في خلوته وينشر إبداعاته. والرسام يستطيع أن يرسم بمفرده ويعرض لوحاته، وهذا ينطبق على تجسدها لوحدها؛ لكن الفن المسرحي لا يكتمل ولا يستوي إلاَّ بكل هذه الفنون، فهو يجمعها ويوحدها في عرضه المسرحي، لأنه فن جماعي، ولا يمكن إظهار وعرض هذا المولود الإبداعي المشترك إلاَّ على خشبة المسرح، التي يتواجد فيها العرض المسرحي المستقيم على عنصرين أساسيين وهما: الممثل، والجمهور.

أن وراء الممثل يقف المؤلف المسرحي الذي يقدم صورته عن الحياة ورؤاه لها، في نص يحوي المقومات الدرامية العاطفية والفكرية والإنسانية، والمخرج الذي يقوم بتفسير وتجسيد العرض ونقل رؤيته الفكرية والفنية والجمالية بأسلوب ممتع وشيِّق من خلال النص والتقنيات المسرحية الفنية الأخرى. ويقف وراء الممثل أيضًا الراقصون والموسيقيون والرسامون وفنيو الديكور والإضاءة والصوت والاكسسوار والملابس والمكياج، وكل التقنيات الضرورية واللازمة للعرض المسرحي. أما الأساس الثاني للعرض المسرحي فهو: الفرجة أو المشاهدة، التي يكون قوامها الجمهور، الذي يجعل أداء العرض حيًا ويدخله في صميم النشاط الإنساني، ويصبح المعبر عن حياة المجتمع، ويعكس همومه ومشكلاته وصعوباته وأحزانه وتقاليده وتراثه وأفراحه ومسراته. فبدون وجود خشبة مسرح ثابتة للفنان المسرحي لا يمكن خلق حركة مسرحية دائمة ومستمرة، وبدونها لا يمكن أن تتراكم تقاليد وعادات مسرحية محليَّة.

إن المسرح فكر وثقافة قبل أي شيء آخر، ويجب التعامل مع المسرح بوصفه فنًّا وأدب رفيع وله قواعده التي لا يمكن تجاوزها أو الخروج عليها برغم تطور واختلاف مدارسه وأشكاله أو قوالبه سواء من المؤلف أو المخرج أو غيرهما، وعلى المسرحيين أن يراعوا قدر الإمكان جودة وعمق ما يقدمون بالإضافة إلى وجود قيادات وطنية مثقفة تؤمن بأهمية دور المسرح وحريته ومسؤوليته؛ لتعميق الوعي بالقضايا والفكر والثقافة وتأسيسه على أسس سليمة بشروطه ومقوماته العلمية والفنية والإبداعية.

تعرضت الفنون بكافة أشكالها وأنواعها في الجنوب إلى تدمير ممنهج، وكان الدين الإسلامي الموجه من دماج ومعبر أبرز معاول هدم كل جميل في الجنوب عبر أبنائه الذين ذهبوا إلى تلك المراكز الدينية بغرض التزود بالعلوم الشرعية؛ فعادوا إلى مناطقهم وقرائهم وهم مزودون بالمنع لكل فن شعبي أو مؤسسي وأياديهم تمتد لتخريب كل آثار ومقدرات هذا الشعب من مؤسسات فنية ولم تسلم منهم حتى الأضرحة وطقوس الاحتفالات الاجتماعية في الأعراس وغيرها من المناسبات التي يرافقها رقص أو غناء أو شرح أو أي طقس يحاكي الجانب العاطفي والوجداني في الإنسان.

التوصيات:

- وضع استراتيجية شاملة لإعادة الفنون الثقافية الجنوبية وفي مقدمتها المسرحية الرائدة، الفكاهية والاجتماعية والتاريخية حتى تعرف الأجيال الحاضرة واللاحقة عظمة الآباء والأجداد.
- حصر البنى التحتية من مسارح وأندية ودور نشر ثقافية وترميمها وإعادة تنشيطها سواء أكانت في العاصمة عدن أم باقي محافظات الجنوب.
- تقديم الدراسات والورش والندوات من حين إلى آخر التي تسهم في تطوير الحركة الثقافية الفنية بالإضافة لعرض الأنشطة في بعض المنتديات المكرسة بحال المسرح بشكل عام أو نوع معين منه؛ لمحاولة استنهاض كبوة المسرح بنيةً وتمثيلًا؛ وأن تشكل في إطار هذه الورشة فرقة مختصة وعلى إدراك ووعي بأهمية المسرح، وتخرج بتوصيات ترسم خارطة استراتيجية تنتشل حال المسرح في بلادنا.
- نشر الوعي الثقافي لدى افراد المجتمع عن أهمية الفنون الثقافية في تنمية الحس الوطني وبناء الشخصية.

مراجع الدراسة:

- المسرح في عدن، خالد سيف سعيد، صحيفة الأيام الاثنين 8 ديسمبر 2014م.
- مسرح الطفل في اليمن: أهم أشكال المقاومة الثقافية في عصر الاستعمار، تجربة مسرح الطفل في اليمن- دراسة بحثية، هايل علي المذابي.
- عدن تحتفل باليوم العالمي والذكرى المئوية على تأسيس المسرح فيها، تاريخ 27/ 3/ 2010م، موقع مأرب برس.
- نشوان نيوز.
- موقع المؤتمر نت.
- صحيفة الوطن العدنية.
- صحيفة المرصد، أخبار محلية.
- راديو عدن الغد.. هل تكتب الحرب «شهادة وفاة» المسرح اليمني؟ الإثنين - 13 مارس 2017 - 12:55 م بتوقيت عدن، حسن عبد الوارث- الخليج.
- غيمان، العدد الخامس، صيف 2008م. سؤال العدد (تعثر المسرح في اليمن)
- صحيفة الأيام، الاثنين 3 ديسمبر 2007م. موضوع بعنوان (عرفت لحج المسرح في الأربعينيات)، وحيد الشاطري. (هذه المراجع جميعها مأخوذة من ويكبيديا)

عن مؤسسة اليوم الثامن للإعلام والدراسات

مؤسسة إعلامية بحثية مستقلة نشأت بمقتضى أحكام قانون الجمعيات والمؤسسات الأهلية رقم (1) لعام 2001م ولائحته التنفيذية الصادرة بقرار رئيس مجلس الوزراء رقم (129) لسنة 2004 وبموجب مواد هذا النظام مؤسسة أهلية غير حكومية باسم (مؤسسة اليوم الثامن للإعلام والدراسات)، وتتمتع بشخصية اعتبارية وذمة مالية مستقلة، تمارس نشاطاً (اعلاميا وتنموياً واجتماعيا وانسانياً) ولا تستهدف من نشاطها جني الربح التجاري. وتحمل ترخيص رقم (0693) صادر من مكتب الشؤون الاجتماعية في العاصمة الجنوبية عدن.

تسعى المؤسسة منذ تأسيسها في الـ13 من أكتوبر (تشرين لأول) 2016م، إلى تقديم تغطية آنية وشاملة لأبرز الأحداث والآراء السياسية وتسهم في تقديم البحوث والدراسات الآنية والمستقبلية والاستراتيجية، التي تتناول قضايا وملفات لها علاقة بالجنوب واليمن والاقليم فضلاً عن تلك التي لها صلة بقضايا الصراع الاستراتيجي في الشرق الأوسط، والقرن الأفريقي المطلة على البحر الاحمر ومضيق باب المندب وخليج عدن.

البحوث والدراسات والتحليلات والتقارير المنشورة لا تعبر بالضرورة عن سياسة مؤسسة «اليوم الثامن» للإعلام والدراسات، بل تعبر عن اصحابها.

رؤية المؤسسة.

التميز والريادة في المعايير الإعلامية والمنهجية والدقة العالية في البحث العلمي القائم على المصادر الموثوقة والآراء والتحليلات الحصيفة.

- أهداف المؤسسة

1- خلق وعي إعلامي يقوم على اساس ديمقراطي ويسعى لتمكين جميع أفراد المجتمع.

2- تغطية الاحداث التي تشهدها اليمن بطريقة جيدة واحترافية وحيادية.

3- تعزيز مشاركة الجمهور من خلال استخدام ووسائط الصحافة العامة والإعلام البديل.

4- إبراز دور العمل الاعلامي الديمقراطي واهمية دعم السلام لتحقيق استقرار المجتمع وتطويره

5- إلهام وإثراء معلومات الممارسين والمهتمين بالأمر في مجال الإعلام ومد جسور التواصل بينهم.

6- توفير منبر للحوار، وتعزيز وتقوية الشراكة والتفاهم المتبادل مع مراكز صنع القرار.

7- بناء القدرات وتطوير الأداء الإعلامي للصحافيين والمواطنين الصحفيين.

8- إقامة وتنظيم المؤتمرات وورش العمل والبرامج التدريبية التخصصية في مجال الاعلام.

9- التشبيك مع المؤسسات والمراكز المتخصصة في الإعلام بمختلف انواعه وتبادل الخبرات معها محليًّا وعربيًّا ودوليًّا.

10- أنسنه الإعلام وتعزيز افكار الديمقراطية والتشاركية من خلال إجراء التحقيقات الصحافية، التقارير التفسيرية، الرسومات البيانية، معارض الصور، الخرائط التفاعلية.

- الهيكل التنظيمي للمؤسسة

أولا: الهيئة الإدارية

ثانيا: الهيئة التنفيذية

ثالثا: فريق العمل الميداني

- أقسام المؤسسة

1) قسم الصحافة والإعلام السياسية والاجتماعية

2) قسم الدراسات والبحوث

3) قسم والترجمة والنشر التوثيق

4) قسم استطلاعات الرأي

5) قسم التدريب والتأهيل

6) قسم البرامج والإنتاج.

تضم المؤسسة نخبة اكاديمة مختصة في الاعلام والبحوث والدراسات تسعى من خلالهم إلى تحقيق الأهداف المرجو تحقيقها .

العنوان - العاصمة عدن - خور مكسر - مكتب المؤسسة الشابات

للتواصل|

alyoum8th@gmail.com - +967 - 777668124 - 774416972

الفنون الجنوبية بين الهدف والاستهداف من النشأة إلى التدمير

المسرح في عدن نموذجًا

د. سالم الحنشي
أكاديمي ومحاضر في جامعة عدن
باحث لدى مؤسسة اليوم الثامن للإعلام والدراسات

ابريل 2024م